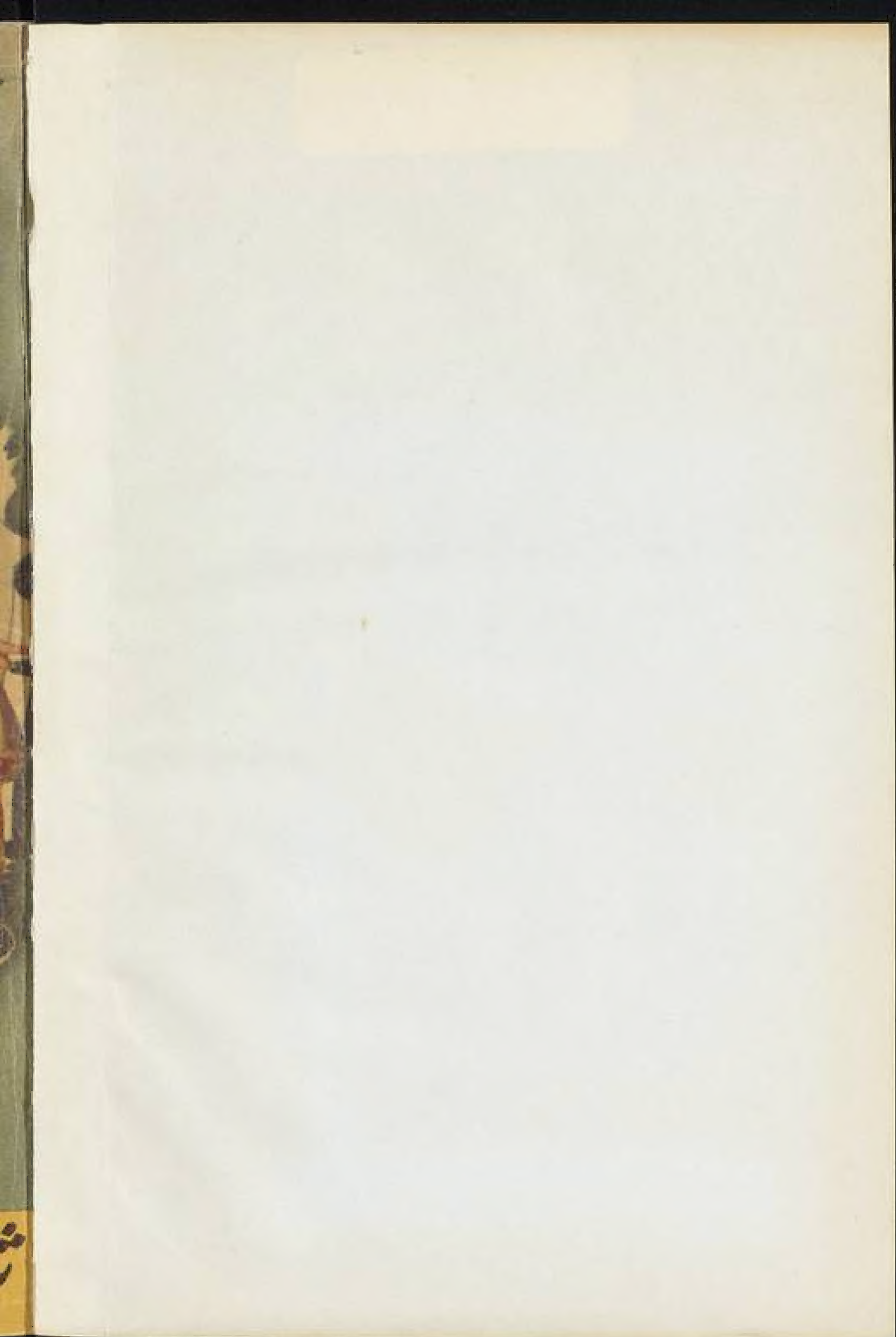
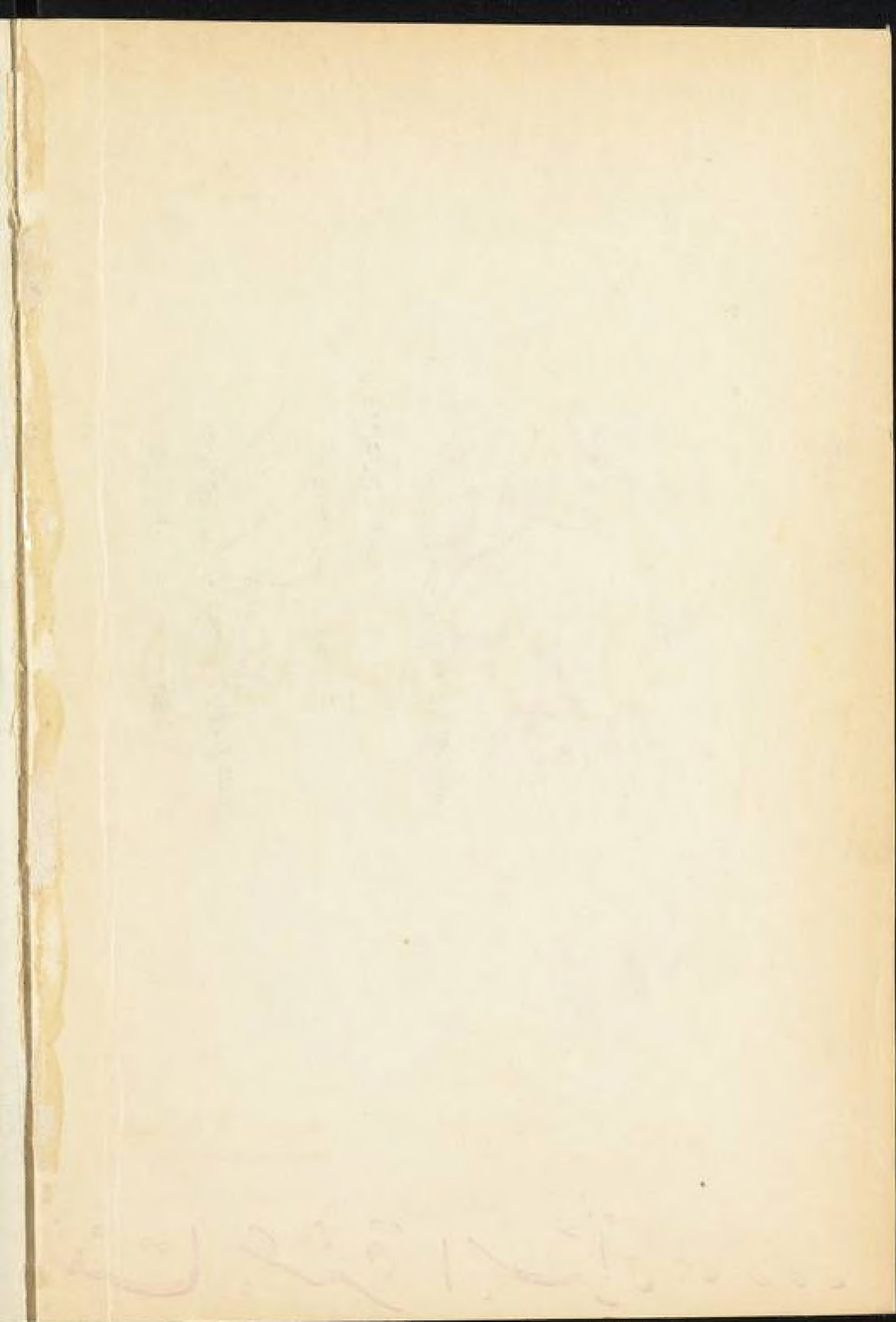
DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE





يوسف السباعي





al-Sibāʿī, Yūsuf

يوسف السباعى

Ithnatā ʿashrata imraʾatan

اثنا عشرة امرأة

الطبعة الثانية

الناشر مكتبة الخانجي

للمؤلف

١ — أطياف
الناشر : مكتبة الخانجي
طبع في شركة فن الطباعة — يناير ١٩٤٧

٢ — نائب عزرائيل
الناشر : مكتبة الخانجي
طبع في شركة فن الطباعة — نوفمبر ١٩٤٧

٣ — اثنتا عشرة امرأة
الناشر : مكتبة الخانجي
طبع في شركة فن الطباعة
الطبعة الأولى — مارس ١٩٤٩
« الثانية — مارس ١٩٥٠

٤ — خبايا الصدور
الناشر : دار النشر العربية
طبع في دار الأحد ببيروت لبنان — مايو ١٩٤٨

٥ — يا أمة ضحكت
الناشر : مكتبة الخانجي
طبع في شركة فن الطباعة — أغسطس ١٩٤٨

٦ — اثنا عشر رجلا
الناشر : مكتبة الخانجي
طبع في شركة فن الطباعة — فبراير ١٩٤٨

٧ — أرض النفاق
الناشر : مكتبة النهضة المصرية
طبع في مطبعة السعادة الكبرى — أبريل ١٩٤٩

٨ — في موكب الهوى
الناشر : دار الفكر العربي
طبع في شركة فن الطباعة — يوليه ١٩٤٩

٩ — من العالم المجهول
الناشر : مكتبة الخانجي
طبع في شركة فن الطباعة — نوفمبر ١٩٤٩

١٠ — هذه النفوس
الناشر : دار الفكر العربي
طبع في شركة فن الطباعة — مارس ١٩٥٠

تحت الطبع إني راحلة — أساطير الأولين — مبكى العشاق — صور طبق الأصل — أم رتيبة — السقا مات —

الإهداء

إلى صديق :

الأستاذ عمر عبد العزيز أمين

أهدى إليك «دستة» نساء ... وأنا أحس فى قرارة نفسى أنه إهداء مفزع ... فالرجل منا لا يكاد يحتمل امرأة واحدة ... فما بالك بدستة ... دستة مرة واحدة .

تحمَّل يا صاحبي ... واصبر على الإهداء وتجلَّد ... ولا تظن بى السوء ... أو يخطر على بالك أننى لم أقصد بإهدائى سوى أن أروعك وأفزعك ... أو أن أدبر لك أحد «مقالبى» .

لا تظن بى شراً ، فإنى أؤكد لك أنى سليم الطوية ، حسن النية ... والأعمال ، يا أخى كما يقولون ، بالنيات ... إنى لم أقصد بإهدائى سوى أمرين : أولهما أنى رغبت أن يشاركنى فى حمل عبئهن عنى صديق مخلص .. جميل القلب .. كثير المروءة ، جم التواضع ، يلجأ إليه الإنسان فى الملمات فيجد منه خير العون ... وأى ملمة تصيب الانسان أكثر

من اثنتى عشرة امرأة ؟ ... وتلفتُّ حولى فوجدت الصفات لا تنقصك ، فحدثتنى النفس بأن أشركك فى عبئى بإهدائك إياه .

إننا صديقان ... والأصدقاء يتقاسمون السراء والضراء ... هل لديك ما يمنع من أن تشاطرنى بعض الضراء ؟ على أن أشاطرك أنا بعض السراء ؟

أما الأمر الآخر ، يا أخى ، فهو أنى أحسست برغبة فى أن أهدى إليك شيئاً ، وأنا رجل فقير ، لا بضاعة عندى سوى الكتابة ... فلم لا أهدى إليك — وأنت السابق بالفضل — بعض كتابتى ؟

لقد قيل إن خير عنوان الوداد ما كان شعبة من المهدى ، فما بالك وأنا أحس أن هديتى أو كتابتى ليست فقط شعبة منى بل هى أصلى ولبى وجوهر نفسى .

ما رأيك ، يا أخى ، هل اقتنعت بحسن نيتى ... وهل تستطيع بعد هذا أن تحتمل الإهداء ؟

اقتنعت أم لم تقتنع ... لقد أهديته لك ، وأمرك لله .

والسلام عليكم وعلينا ، ووقانا الله وإياكم من دستة النساء .

يوسف السباعى

مقدمة

لشدة ما يدهشني . . هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أعداء المرأة . والذين يحاولون أن يصفوها بصفات الشر والسوء . ولست أحاول بقولى هذا أن أدافع عن المرأة . . فإنه يدهشنى أيضاً أكثر من هؤلاء . . أولئك الذين ينصبون أنفسهم للدفاع عن المرأة ، ويحاولون تبرئتها من كل شر وسوء .

يدهشني من هؤلاء وهؤلاء محاولتهم جمع النساء فى صفة من الصفات . . سواء كانت حميدة أو شريرة . . فلست أرى هناك صفة واحدة نستطيع أن نشرك فيها النساء . . . فهن أنواع متعددة وأصناف متباينة منهن الطيب ومنهن الخبيث ، وفيهن الحسن وفيهن القبيح ، وفيهن وفيهن . . من كل ما يمكن أن يخطر على بال إنسان ، ولست أظن أن هناك ما نستطيع أن نجمعهن به سوى أنهن إناث كغيرهن من إناث الحيوانات والطيور والحشرات . أما أن نقول أن المرأة ملاك رحيم . . أو أن نقول إنها شيطان رجيم ، فهذا هو السخف بعينه . بل إن مجرد وصفنا إياها بأنها « الجنس اللطيف » . . وصف غير سديد . . أو هو من قبيل المبالغة أو المجاملة . . فإنى

أعرف نساء . . لو قلت عن إحداهن إنها من « الجنس اللطيف » لما كان قولى إلا سخرية وتهكما . . أو كان من قبيل مناداة الشىء بضده . . كما تقول على الزفت « بياض » .

ولقد حاولت فى كتابى هذا أن أكتب عن المرأة بمختلف أنواعها . . وأن أعرض بعض صورها . . مستعينا فى ذلك بطريقة القصة ، وهى كما أعتقد طريقة فى الكتابة مستساغة . فليس أسهل على القارىء من تناول القصة والإقبال عليها . . فالقصة أشبه ما تكون « ببرشامة » يستطيع أن يضع فيها الكاتب أفكاره وآراءه ، ويسهل لقارئه بواسطتها « ابتلاعها » دون أن يحس منها ضيقاً ولا مرارة . كما أن القصة التى لا تزيد عن « حدوته » قد خلت من الأفكار ان يكون لها تأثير فى نفس القارىء أكثر من تأثير « برشامة » فارغة .

وعند ما جلست لأكتب مقدمة الكتاب حاولت أن أحدد قيمة المرأة فى حياتنا فوجدتها أشبه بالوقود الذى يحرك الرجل ، والذى يدفعه إلى الحركة وإلى الحياة . . . والنساء يختلفن كما يختلف الوقود . . فأنواع الوقود التى تحرك الآلات تختلف فى قدرتها وفى نوعها . . فهى تختلف بين بترول وفحم وخشب وبنزين أحمر وبنزين أبيض وزيت « وسبخ » ، وكذلك النساء يتفاوتن فى أنواعهن وفى تأثيرهن ، وقدرتهن

على تحريك الآلات الآدمية . . وكما أن الوقود قد ينتج عنه انفجار الآلات أو احتراقها . . فكذلك النساء قد يكون تأثيرهن الحرق أو التحطيم .

وعلى ذلك ، فلا أظن أن الحياة يمكن أن تصبح حياة . . وأن الرجل يمكنه أن يكون لديه أمل أو مطمع .. لو خلت الدنيا من النساء . . وليس هناك من ينكر أنه ما من مطمع للرجل فى هذه الحياة ، إلا كانت الرغبة الدافعة إليه . . هى إرضاء المرأة . . مهما حاول الرجل إنكار ذلك . . .

ولقد كتبت ما كتبت عن النساء ، وحاولت تشريحهن وتحليلهن . ولقد يبدو من كتاباتى عنهن أنى قد فهمتهن وألممت بخفاياهن . . وأنى قد درستهن دراسة تامة . . فعرفت المرأة الغيرى ، والمرأة الضالة ، والمرأة الخاسرة ، والمرأة الثكلى . . أجل قد يبدو من كتاباتى عنهن أنى قد أصبحت خبيراً بأمورهن وقد يكون هذا هو ما دفع بعض القراء إلى أن يعرضوا علىّ مشاكلهم ويطلبوا منى النصح والعون . . .

ولكنى مع كل ذلك . . ورغم كل ما كتبت لا أستطيع إلا أن أعترف أنى عاجز أمامهن .. وأنى ما استطعت فهمهن بعد . . وأنى ما زلت حيالهن كطفل غرير . . فما وجهت إلىّ نظرة من عين ساحرة إلا تركتنى أتخبط . . وما مست يدى

يد ناعمة إلا جعلتني أرتجف . . . وما خلوت بوجه فاتن إلا وجدتني كصبية المدارس . . بي شوق إلى أن أحبّ وأن أُحَبّ . . ويتملكني الخجل من نفسي . . . ولا أملك إلا أن أوجه اللوم إلى قلبي الذي لا أظن إلا أن الشاعر قد عناه بقوله :

قلبي إلى ما ضرني ساعي
يكثر أحزاني وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا
كان عدوي بين أضلاعي

ذلك القلب الخافق بين الضلوع . . المترنح في الحنايا فأقول له :

« آه لو خلا منك الصدر . . لاسترحت من طمعك ومن لهفتك . . ولملكت زمام نفسي وأضحي بيدي أمري . . متى تهدأ وتستقر ؟ . . متى تطفأ غلتك ويشبع نهمك ؟ . . متى تشيخ ومتى يصيبك الوهن فلا تعود تهفو كلما مر بك ثغر باسم أو عين ساحرة ؟ متى . . متى . . لقد كللت منك وما كللت أنت »

ويخيل إليّ أني أسمع بين الدقات والخفقات :

« لن تطفأ غلتي حتى يكف نبضي . . وأكف عن الحياة »

يوسف السباعي

امـــرأة صابـــرة

« لقد كنت وقتـذاك « عاصية القلب » لأني عصبت قلبي حتى أحتمل جوع الحب .. وحتى أصبر على سغب القلب .. أجل يا سيدي لقد علمتني كيف أكون امرأة صابرة » .

انطلق بنا صاحبي بعربته في شارع « فؤاد » متجهاً إلى الزمالك ، وكانت الساعة التاسعة مساء ، وقد خرجنا من إحدى دور السينما ، ودهشت من صاحبي وخيّل إليّ أن ذهنه قد شرد به فأخطأ الطريق ، إذ كان علينا أن نعود أدراجنا ، بعد ذلك ، إلى مصر الجديدة ، وصحت به متسائلا :

— إلى أين ؟

— إلى « أنجه هانم » .

— ومن تكون « أنجه هانم » ؟

— سيدة تركية لطيفة ستعجبك كثيراً . . .

— وفيم ذهابنا إليها ؟ !

— لنأكل « عاشورة » . . فقد دعتني لتناولها ، ولا أظنها إلا مرحبة بوجودك معي .

ووقفت العربة . . ودلفنا إلى الدار . . دار دل مظهرها على مدى ما يستمتع به أهلها من ثراء وسعة من العيش . .



ولقيت المرأة . . بين الشباب والكهولة . . لم تستطع السنون أن تمحو رونق شبابها أو تذبل نضرته . . وأحسست بنفسها رقة طبيعية غير مصطنعة ، وبحديثها عذوبة غير متكلفة .

وعندما غادرنا الدار علمت من صاحبي أن المرأة أرملة طبيب معروف لم يطل العهد على وفاته ، وأنها تعيش فى الدار

وحيدة مع طفلتها . . وسمعت من صاحبي ثناء عطراً عليها ، ومديحاً فى خلقها وفى سمو نفسها .

وتكررت زيارتى للسيدة مع صاحبي بضع مرات . . دون أن أعرف بالضبط سبب صلته بها . . أو أحدد مدى علاقته معها . . فقد كنت أشك كثيراً فى دعواه أنه كان صديق زوجها . . إذ لم أسمع منه بهذه الصداقة من قبل . . حتى فوجئت ذات يوم بمعرفتى خبر زواجه بها . . أقول إنى فوجئت لأنه لم يخطر لى ببال قط أن صاحبي هذا سيتزوج لأنى أعرفه مبغضاً للزواج معرضاً عنه ، حتى لقد جاوزت به السن مرحلة الشباب دون أن يفكر فيه . . بل كان يبدو لى أنه قد عزم على أن يقضى ما تبقى من عمره « أعزب » . . وأنه قد صمم على ألا يتيح الفرصة لامرأة ، أياً كانت ، أن تفسد عليه حياته .

وفوجئت أيضاً . . لأنى قد رأيت الرجل بعد طول صيام . . أفطر . . كما يقولون « على بصلة » . . أو على الأقل هذا ما خيّل إلىّ . . فهما قيل عن كرم خلقها ، ورقة نفسها ، فهى على أى حال أرملة ذات أبناء . . قد ولّى الشباب عنها أو كاد . . كذلك « البصلة » قد تكون خضراء ناضرة أو حمراء طليانية ممتلئة . . ولكنها لن تزيد عن أن تكون « بصلة » .

كذلك أدهشنى من جانب البصلة . . أعنى المرأة ، بعد كل

ما تخيلته فيها من اتزان وعقل وخلق .. أن تقدم على الزواج ولم يمض عام على وفاة زوجها .

وهكذا بدا لى الزواج من الجانبين شيئاً يبعث على الحيرة . وحاولت أتلمس لها عذراً . وأخذت أفكر .. فانتهى بي التفكير إلى تعليل واحد لست أستطيع أن أجزم بمداه من الصحة .. ولكن لا أخال شخصاً قد عرف بنبأ الزواج إلا انتهى إلى مثل هذا التعليل ، وهو أن الرجل قد أغراه ثراء المرأة .. وأما المرأة فقد فتنها الرجل .. فهو على رغم ما قلته من تجاوزه مرحلة الشباب ، ما زال يحتفظ بوسامته وقدرته على اجتذاب النساء .

وتعوّدت بعد ذلك أن أزور صاحبي فى داره الجديدة .. أعنى دار الأرملة الثرية بالزمالك . وفى ذات يوم ، ذهبت لزيارته فلم أجده .. ودعتنى السيدة إلى البقاء لانتظاره فجلست أجاذبها أطراف الحديث .

ولست أدرى كيف ساقنا الحديث إلى ذكر زوجها السابق .. ولكنى وجدت السيدة تطرق برأسها برهة ، ثم ترفع وجهها إلىّ متسائلة :

— لاشك أن زواجى بمثل هذه السرعة قد أثار دهشتك !

وشعرت بحرج شديد ، ولم أدر بم أجيب . إن قلت أنه

قد أثاره .. كل قولى بمثابة اتهام لها بارتكاب خطأ أثار الدهشة .. وإن قلت إنه لم يثر دهشى فكأننى أراها امرأة سوء لا يدهش المرء أن يراها ترتكب خطأ .

ولكن السيدة لم تنتظر جوابى بل أردفت قائلة :

— أنا أعلم أنه شىء يثير الدهش .. فقد كان يجب علىّ أن أصبر وأنتظر .. على الأقل حتى يتم العام . ولكن دعنى أقص عليك قصة مسلية .. أغلب ظنى أنها ستزيل كثيراً من دهشك :

كان ذلك منذ زمن بعيد ، وكنت أعيش فى « أنقره » مع أبى وهو أحد الأطباء الباطنيين وكنت قد بلغت السادسة عشرة عندما بدأ الضوء يخبو من عينى أمى شيئاً فشيئاً .. حتى انتهى بها الأمر بعد بضعة شهور إلى فقد بصرها ، فأصابنا جزع شديد ، فقد أحسسنا مبلغ ما كانت تقاسيه من ألم نفسانى شديد .

وفى ذات يوم أقبل أبى وقد تهلل وجهه وشعّ من عينيه بريق أمل .. وأنبأنا أن أعظم أطباء العيون فى أوربا يمر الآن بأنقره .. وهو يظن أنه قد يستطيع أن يعيد إلى أمى بصرها .

وفى اليوم التالى حضر أبى ومعه مساعده ، وهو زميل أصغر منه كان يعتبر صديق العائلة . ومعهما رجل ذو لحية صغيرة مدببة لم أشك فى أنه الطبيب الأوروبى الشهير .

وعندما انتهى من فحصه عن أمى سمعته يقول : « هناك بعض الأمل .. إننا نستطيع أن نرد إليها بصرها .. ولكنها قد لا تستطيع الاحتفاظ به . على أى حال .. لنجرّب .. فلن يكون هناك أسوأ مما هى عليه الآن » .

وأجريت العملية .. فكانت النتيجة باهرة .. أكثر مما كان يخطر لنا على بال .. فقد أصبحت تستطيع الإبصار أحسن منها فى أى وقت مضى .

وكان الوقت ربيعاً .. والطبيعة قد اكتست أبهى حللها .. كأنها قد رغبت ألا يقع بصر أمى إلا على كل ما هو نضر وجميل .. وأنى لأذكرها فى ذلك الوقت ، وقد وقفت بجانبى فى إحدى الشرفات المطلة على الحديقة بجسدها الفارع الممشوق فلا ترهل ولا استرخاء ، ورأسها الصغير الجميل ، وملامحها الساكنة الهادئة ، وقد سبحت بعينيها فى ذلك المنظر الخلاب الذى بدا فى الأفق عندما اختفت الشمس وخلفت للساحرة الشفق .. فصبغ الكون بلون أرجوانى جميل .. وبدت الأرض منمقة مزركشة ، قد كستها الزهور المتفتحة .. وحمل إلينا النسيم عبير زهر البرتقال فملأت أمى منه رئتيها فى شهيق طويل كأنما تَعُبُّ منه عبّاً . وسمعتها تهمس كأنها تحدث نفسها : « ليحدث بعد ذلك ما يحدث ما دمت قد

أبصرت هذا .. إنى سأختزن فى نفسى من هذا الجمال ما يعيننى على المضى فى حياتى . . حتى ولو لم أبصر بعد ذلك . .

وفى الأشهر القلائل التى أعقبت ذلك بدا لى أنها تحاول حقاً ، أن تختزن فى نفسها ذكريات جميلة لكل ما ترى . . لقد كانت لا تبصر المرئيات مجرد إبصار عابر ، بل كانت تبدو وكأنها تحاول أن تستذكرها ، كما يستذكر تلميذ درسه لكى يعيه رأسه . . لقد كانت تحاول أن تبصر . . لا بعينيها فقط . . بل برأسها وقلبها .

ولقد كنت أجدها أحياناً تناديني فجأة .. ثم تلف ذراعيها حول كتفى وتشملنى بنظرات نهمة .. وتحدث نفسها هامسة :

— شعر ذهبى . . ووجه أبيض دقيق التقاطيع . . وعينان خضراوان ممتلئتان بالأحلام .

وكنت كثيراً ما ألمحها تشخص فى أبى بنفس النظرات وقد استلقى فى مقعده مستغرقاً فى القراءة . . فكنت أذكر قولها إنها ستختزن من المرئيات ما يعينها على الحياة فيما لو فقدت بصرها مرة أخرى .

ولم تمض بضعة شهور حتى خبا ضوء عينيها مرة ثانية . . وفى هذه المرة لم يكن هناك أمل فى برء ، أو رجاء فى شفاء ، فقد ذهب بصرها إلى غير عودة . . وألمت بها ظلمة دامسة

لا يلوح لها فى حلكتها قبس من ضياء . . وكانت هى تدرك الحقيقة . . ومع ذلك فقد بدا لى أنها قانعة راضية . . وأنها كانت قد أخذت أهبتها لذلك . . أو كما قالت . . اختزنت لنفسها من الذكريات ما يجعلها فى غير حاجة إلى متعة البصر . . لقد وعت كل ما تحب أن تراه فى ذهنها وفى قلبها . . إن الظلمة لم تفاجئها هذه المرة . . ولم تأخذها على غرة . . حتى لقد سارت حياتها ، كما كانت من قبل ، دون أقل تغيير أو تبديل . فما انقطعت من زيارتها للأصدقاء . . ومن خروجها للنزهة والتجوال فى الأسواق .

وكنت أصطحبها أينما سارت ، وقد أسندت يدها بخفة على ذراعى وسارت فى ثقة واطمئنان . وكان أحب الأشياء إليها أن نخرج سوياً للنزهة . . وأن أصف لها كل ما أراه وصفاً دقيقاً . . . وتعوّدت أنا ذلك الأمر حتى أجدته كل الإجادة . . وأصبحت الألفاظ تنساب من شفتى فى سهولة كأنى أقرأ صفحات كتاب . . وكانت كثيراً ما تحدثنى ضاحكة :

ـــ لقد أصبحت مدهشة . . حتى لكأنى أرى من حديثك كل ما ترين . . ولكنى لا أود أن أعتمد عليك كل الاعتماد ، لأنك ستغادريننى فى يوم ما ، وتذهبين فى طريقك . . أجل لا بد لى من خادمة تقودنى من الآن .

ــ يا أماه ! إنى لن أفارقك أبدا . . حتى نهاية العمر .

وفى ذات مرة عدنا إلى الدار ، فوجدت أبى ومساعده قد جلسا فى الردهة .. وعندما ذهبت أمى إلى حجرتها أخبرنى أبى أنه قد أوصى على خادمة تتولى عنى مهمتى . . فقلت له فى دهشة : « إننى لا أشكو شيئاً ، وإنى لم أطلب أن يتولى عنى أحد أمر أمى » .

فقال أبى : « إن هذا الأمر لا بد منه ، إن عاجلا أو آجلا ، فلا بد أن يأتى يوم تفارقينها فيه » .

فأجبته : « إن ذلك اليوم لن يأتى ما دام أحدنا على قيد الحياة !! » .

وسمعت الشاب يتمتم قائلا :

ــ لا أظنك تتخيلين أنك ستقضين حياتك هكذا ، مجرد ظل . . لأنكَ لا شك ستكونين لحياتك الخاصة ، ولزوجك وأولادك .

ونفذت هذه الكلمات إلى نفسى كأنها السهام ، فما من أحد فى هذه الحياة يرغب أن يكون مجرد ظل لآخر ، وما من شك فى أن آمالا تراود نفسى فتصور لها حياة مستقبلة مفعمة بالهناءة وبيتاً جميلا وزوجاً وأولاداً .. ولكننى كنت لا أدع نفسى تنساب مع هذه الآمال ، فقد كنت

أعتقد أن هذه الدنيا لابد أن يضحى فيها البعض لكى يسعد البعض الآخر ، وكنت أرى القدر قد جعلنى من ذلك البعض الذى يجب عليه أن يضحى ، فقبلت التضحية ، إذ كنت أحس أن أمى لا تستطيع الاستغناء عنى ، وأن أحداً لا يستطيع أن يقوم لها بما أقوم به . . لقد كان يجب علىّ أن أعوض لها بصرها الذى فقدته .

ولم أشك فى أن أبى ومساعده قد تحدثا عنى مليا . . وخيّل إلىّ أنى استطعت أن أخمن موضوع الحديث ، وإن كنت لم أستطع أن أعرف ما قيل بوجه التحديد .

لقد تحدثا بلا شك عن مسألة زواجى . . فأغلب ظنى أن هذا هو ما أثار مسألة الخادمة . . ولكن كيف تحدثا ، وماذا قالا ؟ لست أدرى . لقد كان مساعد أبى ـ كما قلت لك ـ صديق العائلة ، وكنت أعتبره أخاً أكبر . ولا لشىء أكثر من هذا . والواقع أنه كان رجلا هادىء الطبع ، كريم النفس ، جميل الخلق . ذا مظهر محترم . . رجلا يستطيع المرء أن يركن إليه فى الشدة والضيق . . ولكنى مع ذلك لم تخطر على بالى فكرة زواجه . . إذ لم يكن هو الزوج الذى تصوره لى الأحلام ، والذى كنت فى قرارة نفسى أتلهف عليه . لست أدرى . . لِمَ ؟ ولكن هذا هو ما كنت أحس به .

ولكن مالى ولهذا الحديث . . وأنا التى فرض عليها القدر قبول التضحية . . ورسم لها الطريق الذى لا تستطيع أن تحيد عنه . . وخاصة بعد شهر من هذا الحديث . . عندما أصابنى القدر بأول فاجعة حددت لى الطريق تحديداً واضحاً . . فقد مات أبى . . وأصبحت وحيدة مع أمى ! !

ومرت بى الأيام بعد ذلك . . وأكون كاذبة مدعية إن قلت إنها لم تكن طويلة مملة ، وأن ثورة مكبوتة كانت تحتمل فى صدرى وأنا فى مثل هذه السن الثائرة الفائرة التى تحس فيها الفتاة بنهم إلى الحياة . . والتى لم أكن أفعل فيها شيئاً سوى ملازمة أمى والحديث إليها . . وسوى بعض نزهات يصحبنى فيها مساعد أبى الذى كان شديد العطف علىّ .

وفى مرة من هذه المرات ، سألنى الزواج ، قائلا بصراحته وهدوئه اللذين عهدتهما فيه . . محاولا أن يواجه فى قوله كل الحقائق التى تحيط بنا :

ــ أنا أعلم أننى قد أكبرك كثيراً . . وأعلم أيضاً أنك لا تحبيننى . . أعنى ذلك الحب المشتعل الذى يتأجج فى الصدور . ولكننى أعتقد أننا قد نستطيع أن نسير جنباً إلى جنب . . وأن يعاون كل منا الآخر فى حياته . . ويمكن لأمك أن تعيش معنا . . لقد أحببتك دائماً . . وتمنيت

فى كل لحظة أن نكون شريكين فى حياة واحدة .

وسادت بيننا فترة صمت طويلة ، عصفت خلالها برأسى الأفكار بشدة وعنف ، ثم أجبت فى النهاية بنفس الصراحة :

ــ إنى لا أكنّ لك سوى الحب والتقدير .. ولكنى لا أرغب فى الزواج . أو على الأقل ليست بى رغبة فيه الآن .

هل حقاً لم أكن أرغب فى الزواج ؟! أم أن الرجل نفسه لم يكن الرجل الذى صورته لى الأحلام ، والذى كان يتلهف عليه القلب ؟ . لم أدر الحقيقة وقتذاك .. وقتذاك فقط .. لأننى بعد بضعة أيام ، بدت لى جلية واضحة ، عندما صادفت رجل أحلامى نفسه ، بدمه ولحمه ، فعرفت أن المسألة لم تكن مسألة رغبة عن الزواج .. بل كانت رغبة عن الشخص نفسه .

لقيته فى إحدى الحفلات .. فتى مصريا بالسفارة المصرية ولم يستغرق الأمر منى شيئاً من الوقت أو الجهد ، لأتبين فيه أنه الفتى الذى أنتظره ، فقد وفّر على القلب ذلك الجهد والوقت ، عند ما أحسست به قد صفق بين الضلوع .. وهفا وترنح كالثمل .. لقد كان القلب أدرى وأعلم .

وأخذت الصلة تزداد بيننا ، ودعوته لزيارتنا فى دارنا ، كما دعانا لزيارته .. وهنا بدأت أحس بثقل القيد الذى كنت موثقة به ، وبدأت أشعر بلهفتى على شىء من الوقت يكون

ملكا لى ، وعلى شيء من الحرية تمكنني من التصرف كما أشاء ، حتى كان ذات يوم أقبل علينا مساعد أبى ومعه فتاة صغيرة رقيقة قال إنها فتاة يتيمة لا عائل لها ، وإنه ظن أنها قد تساعدنا فى خدمة أمى .

ولا تسل عن فرحتى الشديدة بالفتاة ، فقد أحسست أنها ستستطيع أن تهيء لى ذلك الوقت والتحرر اللذين كنت أتلهف عليهما . . وإن كنت لم أحاول أن أظهر فرحتى حتى لا أؤلم أمى . . وحتى لا يداخلها شعور بأنى قد أصبحت أضيق بها .

وكانت الفتاة ذكية فطنة . . فسرعان ما عرفت بيوت الأصدقاء والأماكن التى كنت أرتادها مع أمى . . وأخذت تقوم عنى بمرافقتها فى كثير من الأوقات . . وبدأت أحس أنى قد أضحيت — إلى حد ما — حرة طليقة . . وأنى لم أعد بعد ظلا . . بل أصبحت أصلا أتصرف فى نفسى وفى أوقاتى . وكنت فى ذلك الوقت فى أشد الحاجة لذلك حتى أستطيع أن ألقى صاحبى .

ولست أظننى فى حاجة إلى أن أصف لك تلك الفترة من العمر . . الفترة التى تصاب فيها الفتاة بنشوة الحب الحقيق . . والتى تحس فيها أنها لا تملك من أمر نفسها شيئاً . . وأن زمامها

قد أفلت من عقلها وأصبح طوعاً لقلبها وإحساسها . . وأنها قد أصبحت مقودة بعاطفتها ومشاعرها . دون أن تجد فى ذلك غرابة أو تحس غضاضة . . لأنها سكرى تترنح فى روضة من رياض الحب فوّاحة غنّاء .

أجل لن أحاول أن أذكر لك التفاصيل - رغم أنى أجد فى ذكرها لذة ممتعة - لأنها شىء يطول شرحه ولأنى لا أظن هناك امرءاً لم تمر به تلك الفترة . . مهما اختلف مظهرها ، وتنوعت ظروفها . . ولكنى أستطيع أن ألخصها لك فى بضع كلمات هى أن تلك الفترة لم تكن من دنيانا فى شىء ، أو أنها مرّت فى غفلة من الزمن . . أو هى حلم من أحلام الدجى .

وهكذا دأبت أرشف من كأس الهوى ، أو على الأصح ، أعب منها عباً . . حتى كان ذات يوم أنبأنى الفتى وقد أسندت برأسى إلى صدره أنه سيعود إلى مصر . . فأحسست بقلبى يغوص بين جنبى . . وبدا علىّ وجوم شديد . . ولكنه همس فى أذنى :

- سنعود سوياً إلى مصر . . مصر الجميلة العزيزة . . أؤكد لك أنك ستحبينها كما أحببتنى . . ستحبين نيلها العذب القوى يمتد فى بساطة وهدوء . . ينساب بين بطاحها فى ثقة واعتداد . . كأنه السيد الكريم المحبوب . . وحقولها

المترامية الخضراء تهز أطرافها نسمات خفيفة وتسمع منها حفيفاً كأنه تسبيح بحمدالله والنيل والأرض الخصبة الطيبة. ستحبين أهلها الكرام الطيبين.. ستحبينها كما أحبها أنا.. لأن كل ما فيها يحب.

وفعلت كلماته فعل السحر فى نفسى.. فلقد كنت عاشقة، والعاشق يؤمن بكلام صاحبه.. كما يؤمن بكلام الله.. وأحسست أنى قد أحببت مصر فعلا قبل أن أراها.. وتمنيت لو وجدت نفسى بعد غمضة عين بجوار صاحبى على شاطىء النيل.

وعدت إلى الدار بعد ذلك.. وتجنبت لقاء أمى.. فقد خشيت أن تقرأ ما بنفسى.. ولكن تجنبي إياها لم يفد شيئاً فقد كان يخيل إلىّ أنها تعرف كل شىء. وأنها تحس أننى قد بت بمنأى عنها.. وأننى طرحتها جانباً وسرت فى طريق.

وتعوّد صاحبي زيارتنا فى الدار.. ورغم ما كانت تلقاه به أمى من حفاوة ظاهرة.. فإننى كنت أحس أنها لا ترتاح إليه كثيراً.. بل أكثر من هذا كانت تبغضه.. فأغلب ظنى أنها كانت ترى فيه عدواً يوشك أن ينتزع منها شخصاً حبيباً إن لم يكن قد انتزعه فعلا.

وأصيبت أمى بعد ذلك بمرض سبب لى جزعاً شديداً..

وحضر زميل أبي لعيادتها . . ولم يكن مرضها شيئاً مفاجئاً . . فقد بدا عليها الهزال ، وأصابها أرق قبل ذلك ببضعة أسابيع . وبعد أن فحصها الرجل انفرد بي فى إحدى الحجرات ، ثم قال فى هدوء :

— يجب علينا أن نواجه الحقائق . . إن أمك تعانى أزمة نفسية شديدة .

— أزمة نفسية شديدة ؟ . . ماذا تعنى . . و لِمَ ؟! .

— لا داعى للتجاهل . . دعينا نتكلم بصراحة أكثر ، إن أمك تعلم كما يعلم كل إنسان عن هذا الحب الذى بينك وبين الفتى المصرى .

وتصاعدت الدماء إلى وجهى ، وحاولت أن أقاطعه ، ولكنه أسكتنى بإشارة من يده . . وأردف بصوت ملؤه الرقة :

— إنى أحدثك كصديق .. إن الأمر نتيجة طبيعية لكل ما حدث . . لقد كنت ظلاًّ لها خمس سنوات طوال ، فلا أظنك تتخيلين أنها ستتنازل عنك بيسر . . إنها تحاول دون أن تشعر أن تستعيد اهتمامك بها .. إنها تخشى أن ينزعك منها صاحبك . . وتخشى أيضاً أن تسبب شقاءك . . فهى بين الأمرين فى صراع نفسى عنيف . . قد يكون ذا خطورة

عليها إن لم نتدارك أمره . . وإنى على استعداد لأن أقدم لمعاونتك كل ما تطلبين .

وسادت فترة صمت استغرقت خلالها فى تفكير عميق ، وبدا لى أننى فى غمرة الحب قد نسيت أمى المحبوبة . . وأنى قد أهملتها شر إهمال . . وأحسست بضميرى يخزنى وخزاً شديداً . . لقد أعمانى الحب وأضلنى الهوى . . فكنت أنانية إلى أبعد حدود الأنانية . . وتذكرت ما كنت أحدث به نفسى عن التضحية ، فأحسست نحو نفسى بالازدراء . . ورأيتنى تافهة حمقاء . . كصادية اندفعت تعدو وراء أول سراب لاح لها . . وتواردت الأفكار على رأسى فى سرعة البرق . . فوجدت أنه من العبث أن آمل فى زواج صاحبى . . لأنه يستحيل علىّ أن أترك أمى وأسافر معه إلى مصر ، ولا سيما بعد أن رأيت ما قد صارت عليه حالتها من السوء بعد إهمالى إياها . . فما أظننى قد أصبحت أنانية شريرة إلى هذا الحد . . وكذلك كان من الحمق أن أفكر فى أن تسافر معنا . . فأحمله عبء امرأة عمياء . . وخاصة أنى أعلم تماماً أن أحدهما لم يرتح إلى الآخر قط . . إذ كلاهما يحس غيرة من صاحبه . . ولم أكن أشك فى أن الحياة معهما سوياً لن تكون سعيدة بحال من الأحوال .

وفى خلال هذه الثورة الذهنية التى عصفت برأسى بدا لى أن خير حل أضع به حداً لتلك المتاعب ، هو أن أتزوج هذا الرجل الواقف أمامى ، فما أظننى أطمع فى الحياة فيمن هو أجمل منه خلقاً أو أطهر نفساً . . لقد كان رجلا طيب القلب.
وأخيراً قطعت حبل الصمت بسؤاله فجأة :

ـــ هل ما زلت على استعداد للزواج منى ؟

وذهل الرجل . . ولكنه أدرك بسرعة ما قادنى إليه تفكيرى ، فأجاب بهدوء :

ـــ طبعاً ما زلت . ولكنى لا أريد أن أكون حائلا بينك وبين من تحبين . . لا أريد أن أكون دواء مراً تحاولين به التخلص من آلام نفسك . . إننى لم أقصد أن أعاونك بهذه الطريقة . . وإنى لا أريد أن أكون سكيناً تقطعين به حبل آمالك . . لا . . لا . . دعينا من مسألة الزواج الآن . . فأنا أعرف أنك فى غمرة يأس .

ولكننى كنت قد صممت . . وذهبت إلى أمى لأعلمها بالأمر . . فبدا عليها فرح شديد .

ولست أجد داعياً لأن أصف لك الأيام القلائل التى مرت بعد ذلك حتى تم الزواج .

أتسمع يا سيدى ، عن ذلك الذى يسمونه « عاصب

البطن ، وهو شخص قد عصب بطنه حتى يحتمل الجوع ، ويصبر على السغب؟ لقد كنت وقتذاك « عاصبة القلب» لأنى عصبت قلبي حتى أحتمل جوع الحب . . وحتى أصبر على سغب القلب . . وحتى لا أصاب بضعف وينفذ صبرى . . فأعدو لأرتمى بين أحضان صاحبي وأشبع منه قلبي الجائع ونفسى الصادية.

أجل يا سيدى . . لقد علّمت نفسى كيف تكون امرأة صابرة .

وقد تتهمنى ، يا سيدى ، بأنى لم أكن أحب صاحبي حباً حقيقياً ، وإلا لما استطعت الإقدام على مثل هذا الجنون ، أو قد تقول عنى إننى ذات إرادة خارقة ، ولكن الواقع أننى كنت أشبه بمريض حقنوه بالمخدر قبل إجراء العملية ، وكما يفيق المريض من تأثير المخدر بعد انتهاء العملية فيحس بآلام الجراح التى أحدثها مبضع الجراح ، بدأت أنا الأخرى أفيق لأحس فى قلبي جرحاً عميقاً .

وغادرت البلدة عقب أن تم الزواج . . . مع زوجى ووالدتى لنقضى فى الريف « شهر العسل » (ياله من اسم على غير مسمى) ، ولم أحاول أن أرى صاحبي قبل الرحيل ، إذ كنت فى غير حاجة لأن أزيد الجرح عمقاً ، وأى فائدة

فى أن أراه بعد تلك الحماقة التى ارتكبتها ؟ !!

وعاد هو إلى مصر ، بعد أن عرف بالأمر طبعاً .. وهكذا افترقنا دون أن يرى أحد منا صاحبه ، ودون أن يودعه بكلمة ، اللهم إلا رسالة حملها إلىّ البريد ، لا أدعى أنى وجدت فيها الشفاء ، فقد كان الجرح أعمق من أن تضمده مجرد كلمات .. ولكنى مع ذلك وجدت فى هذه الكلمات شيئاً من العزاء . أتصبّر به كلما أضنانى الشوق وعصف بى الحنين .

* * *

وصمتت السيدة ، ثم رأيتها تنهض وتختفى فى إحدى الغرف برهة ، ثم تعود ثانية وقد حملت فى يدها ورقة صفراء باهتة مطوية بعناية .. ودفعت بها إلىّ قائلة :

— هذه هى الرسالة .. هذا كل ما تركه لى صاحبى .

وفضضت الورقة فوجدت بها بضعة أسطر باهتة ... هى ما يلى :

« لا عتاب ولا حساب .. فإنى لا أرى فى ذلك نفعاً بعد أن انتهى الأمر .. إنى أحاول دائماً أن ألتمس لك المعاذير .. لأنى أحبك ولا أستطيع الكف عن حبك .. ويخيّل إلىّ — دون أن أعرف حقيقة الأمر — أنك لست المخطئة

لأنك لا يمكن أن تخطئ .. فأنا أعرف قلبك الجميل ونفسك الصافية .. يا حبيبتي .. إني سأنتظر .. لا تقولى ماذا ينتظر ؟ ولا تقولى أحمق ينتظر بلا أمل . . . أو عاشق يلق الوعود جزافاً ، فإني سأنتظر . . من يدرى ؟ » .

وانتهيت من قراءة الخطاب . . ثم وقع بصرى على الإمضاء . . فأصابتني دهشة شديدة . . فلقد وجدته بإمضاء صاحبي . . وعقدت الدهشة لساني فلم أستطع إلا أن أقول :

ـ أهو ؟

وهزت رأسها هزة خفيفة وأجابت :

ـ أجل . . هو . . !

ثم أتمت القصة فى كلمات قلائل . . . وقالت :

ـ لقد مرت الأيام والأشهر والسنون .. وماتت أمى . . ثم اضطرتنا الظروف إلى المجيء إلى مصر . . فأقمنا فى القاهرة . . ثم مات زوجى . . والتقيت بصاحبي وصاحبك . . فوجدته ما زال ينتظر . . أترى يدهشك بعد ذلك أن أتزوجه قبل أن يتم عام على وفاة زوجى ؟ !

أترانى بعد كل ما سمعت . . امرأة متعجلة . . أم امرأة صابرة ؟ ؟

امرأة خاسرة

« ... وهوى عليّ بالصفعة الثالثة — أو قل بالطعنة الثالثة — وغادر الحياة ... وتركني في هذه المرة ... لا خادمة ذليلة ... بل نفساً بالية ... وروحاً ذاوية .. وامرأة مخذولة خاسرة »

ليس أعجب فى هذه الحيـاة من ذلك التناقض الذى تظهر به الأشياء إذا ما اختلفت وجهات النظر إليها .. فلو أننا اخترنا إحدى الحقـائق الثابتة أو إحدى الحوادث العابرة التى تمر بنا .. وحاولنا أن نقارن بين المظهر الذى تبدو به لبضعة أشخاص متباينين .. لا صلة بينهم ولا شبه .. ولو حاولنا أن نزن وقعها فى نفوسهم لراعنا ذلك التناقض العجيب الذى يظهر به الشيء الواحد ولعلمنا أنه ما من شيء فى هذه الحيـاة له قيمة فى حد ذاته ، وإنما قيمة هذه الأشياء كائنة فى قلوبنا وفى الطريقة التى تعكسها بهـا مرآة نفوسنا .

ولنضرب مثلا .. جنازة فى طريق .. قد نمر بها فى عربة ونحن فى عجلة من أمرنا .. فيعطلنا ازدحام المشيعين لحظة أو لحظات .. فنظهر السخط والتبرم .. ولا تزيد نظرتنا إلى ذلك الذى يوشك أن يثوى فى جدثه .. عن نظرتنا إلى وسيلة



تعطيل كقطار يمر بجسر لولبي أو جندى مرور فى تقاطع طرق .

أجل .. هذه هى الصورة التافهة التى يبدو فيها ذلك الميت الذى قد يكون موته حدثاً فى نفوس آخرين . . وقد يكون فى رحيله إلى قبره — ذلك الرحيل الذى لم يسبب لنا أكثر من تعطيل دقيقة أو دقيقتين — قد خلف قلوباً موجعة وعيوناً

دامعة .. ومع ذلك فما أظننا إلا خيراً من سوانا بالنسبة لذلك الميت . . على الأقل خير من ذلك « الحانوتى » الذى لم ير فيه أكثر من صفقة رابحة أثلجت صدره وأفرحت قلبه .. وخير من « التربى » وغيره من مقرئى القبور الذين لم يروا فيه أكثر من « موسم شغل » .

هذا هو مثل لتلك الحوادث العابرة التى تصادفنا كل يوم ، ومثل آخر . . هذه القصة التى سأسرد حوادثها والتى لم أر فيها فى أول الأمر إلا أقصوصة تافهة لا تستحق أن تشغل من ذهن المرء إلا بمقدار سماعها ، وبمقدار كلمة أو كلمتين يعلق بهما عليها ، ثم يجاوزها إلى غيرها من أقاصيص الحياة .

ثم رأيت القصة بعد ذلك من زاوية أخرى . . زاوية قريبة . . أبدت لى الكثير من التفاصيل والخفايا ، فراعنى ذلك التناقض بين ما كنت أرى وما رأيت .

القصة من الزاوية الأولى ، لا تزيد على خبرين نشرا متعاقبين .. تفصلهما بضعة أيام .. كلاهما لم يشغل من الصحيفة التى نشر بها إلا بضعة أسطر مقتضبة يمر عليها المرء ببصره مروراً عابراً . . وكان الخبر الأول هو خبر زواج مطربة من رجل غير معروف .. والخبر الثانى هو وفاة هذا الرجل غير المعروف . . . وقد أثار الخبر الأول فى نفسى بعض الدهش

من أن تتزوج المرأة أخيراً بعد طول عهدها بالوحدة ، وبعد أن تركت فرصاً عديدة تفلت من يديها . . ولكنني لم أعلق على الخبر بأكثر من أنها قد تكون أحبت الرجل . . وقد يكون الرجل أحب ثروتها الطائلة . . أما الخبر الآخر فلم أر فيه أكثر من نوع من سخرية القدر . . وما كنت أتوقع من القدر سوى السخرية .

ثم امحى من ذهني بعد ذلك كل شيء عن الرجل الراحل والمطربة الأرملة . . وجرفهما تيار النسيان الجارف القوى . . ونأى بهما عن الذاكرة .. حتى قادتني الظروف ذات يوم إلى لقاء المرأة . . وكان اللقاء في بيتها الأنيق في شارع الهرم . . وقد أدهشني أن أجدها تتشح بالسواد . . ولكني تذكرت حينئذ ذلك الرجل الذى تزوجها ومات بعد بضعة أيام . . وعجبت أن تكون المرأة قد حفظت له عهد تلك الأيام القلائل التى لبثها معها .

وقدمت عليها على أنى « فلان » ـ كاتب قصة ـ وأذكر أنى شعرت بشيء من الزهو عند ما رأيتها تضغط على يدى وتقول باسمة إنها قرأت لى .. وجلست وإياها فى حديقة الدار بعد أن انصرف الزائرون .. ورأيت منها صفاء ذهن ، وحدة ذكاء ، وفى حديثها طلاوة ورقة .

ووجدتها تسألني بعد برهة :

– حدثني كيف تكتب قصصك ؟

– حوادث من الحياة . . أضيف عليها بعض التنميق والتحوير . . وأضفى عليها بعض « التهويش » ثم أحاول أن أجعل لها خاتمة بها شيء من الغرابة !

وضحكت المرأة لتلك الصراحة ثم قالت :

– ما رأيك فيمن يهب لك قصة !! هى - على حد قولك - حادثة من الحياة . . ولكنى أؤكد لك أنها لا تحتاج منك إلى ذلك التنميق والتحوير « والتهويش » ولن تحتاج إلى أن تبتكر لها خاتمة عجيبة . . بل كل ما عليك هو أن تضعها كما هى . . بتفاصيلها وحذافيرها . . وأؤكد لك أنها ستكون خير ما كتبت .

وضحكت بدورى وقلت لها :

– كثيرون غيرك قالوا ما قلت وأضاعوا وقتى ووقتهم فى قصص حياتهم علىّ متخذين منها عجباً . . وأخرج منهم فى النهاية بلا شيء . . أو بما لو فكرت فى كتابته قصة لما سمح لى أحد بعد ذلك بالكتابة .

ونظرت إلىّ المرأة وهزّت رأسها هزات خفيفة وقالت :

– لست أنا . . وليست قصتى . . على أى حال . . لتسمعها

فإن كانت سخيفة ، فما يضيرك أن تزيد السخافات التى سمعتها سخافة ! ! . .

وبدأت المرأة تقص قصتها فكان أول ما قالته :

ــ بدأت حياتى خادمة .

ثم نظرت إلىّ فلم تر منى بادرة دهشة ، فسألتنى فى شىء من الاستنكار :

ــ لِمَ لا تدهش ؟

ــ ولِمَ الدهش . . وأغلبكن قد بدأ حياته كذلك . . ولست أرى فى ذلك مايستدعى الخجل قط . . على العكس . . إننى أرى فيه ما يستدعى الفخر لأن الإنسان فى هذه الحياة أربعة أنواع : واحد يبدأ حياته شيئاً فينتهى إلى لاشىء ، وواحد يبدأ حياته شيئاً فيستمر شيئاً ، وثالث يبدأها لا شىء ولا يزيد فى النهاية عن لا شىء ، والأخير يبدؤها وهو لاشىء فيصبح فى النهاية شيئاً كثيراً . . فلو وازنا بين الأربعة الأنواع لوجدنا شرّها الأول وخيرها الأخير ، أما الثانى والثالث فكلاهما إنسان لم يستطع أن يضيف إلى نفسه أكثر مما وجدها عليه ، فهو إنسان عادى . . وأنت يا سيدتى وغيرك ممن بدأن حياتهن خادمات أو ما شابه ذلك . . ثم صرن إلى مثل ما صرت عليه ، من النوع الرابع . . أى من خير أنواع الإنسان . . ولو كنت

مكانك لما تركت فرصة تمر إلا أعلنت فيها أنني كنت خادمة .

ورأيت المرأة قد استغرقت فى الضحك ثم رفعت إلىّ بصرها قائلة :

— على أية حال أنا لم أخجل قط من أن أقول إنى كنت خادمة .. غير أنى لست أرى ماتراه من أن أعلن فى كل فرصة أنى كذلك .. لأن الناس ليسوا كلهم عقلاء مثلنا ، أو على الأصح ، ليسوا كلهم مجانين مثلنا .

— أتمى قصتك .. لقد قلت إنك بدأت حياتك خادمة .

— أجل ! خادمة فى منزل بحى السيدة زينب .. وكم عدوت بقدمى العاريتين أقطع حارة السيدة ذهاباً وإياباً حاملة زجاجة الزيت ، أو طبق الفول ، أو سلة الخضار .. إنى لأتخيل أحياناً لو كانوا يضعون للإنسان عدّاداً كما يضعون للعربات إذاً لسجل العدّاد الذى ركب فى جسدى الصغير وقتئذ آلاف الأميال من مجموع تلك المسافات التى كنت أقطعها بين الباعة فى شارع « السد البرانى » وبين الدار فى « جنينة لاظ » .

ولم أكن أحس بالكثير من السعادة وقتئذ .. رغم أن أهل الدار لم يكونوا قساة غلاظ الأكباد فقد كان رب البيت رجلا كثير المرح ، طيب القلب ... ولم تكن صلتى به لتزيد عن تحضير الجزمة والشراب و « اللبيسة » ، وكانت تلك

أسهل الواجبات الملقاة على عاتق .. ولم تكن ربة البيت أيضاً بالمرأة الشريرة .. ولكن كان أسوأ ما بها أنها كانت تستشيط غضباً عند ما يطول بي الغياب فى السوق ، وكنت أنا لا يسعدنى فى ذلك الوقت قدر التلكؤ واللعب فى الطريق . وكان لى العذر كل العذر فى ذلك ، فقد كنت لم أعد بعد دور الطفولة ، وكانت تلك هى الفرصة الوحيدة التى أطلق لنفسى فيها عنان اللهو واللعب .. ولكن المرأة لم تكن ترحمنى وقتذاك من « علقة ساخنة » عقب كل غياب .

وشىء آخر كان يغيظنى فى المرأة هو شدة حبها للنظافة .. فكنا لا نكاد نكف لحظة عن الكنس والمسح والتنفيض ، ولكننى أعترف أنها كانت تقوم وحدها بمعظم العبء .. فقد كانت « حمارة شغل » .

وكان يوجد فى الدار غير الرجل والمرأة ابناهما الصبيان اللذان يقاربانى فى السن .. وهذان لم أكن ألقى إليهما كثير اهتمام .. رغم ما كان يصيبنى من أحدهما من « الشلاليت » .. عندما أنسى أن أمسح أحذيتهما ثم أدعى أنى قد مسحتهما .

أقول رغم ما كان يصيبنى من أحدهما .. لأن الآخر وهو الأصغر كان الوحيد فى الدار الذى لم يصبنى منه أذى مذ دخلت الدار .

لقد كان الصبي طيب القلب ، رقيق النفس ، فكنت كثيرة الاطمئنان إليه . . لا أحس له هيبة السادة . . بل كنت أشعر دائماً عند ما أحدثه أو أقضي له حاجة أنه إما أن يكون هو خادماً مثلي ، أو أكون أنا من أهل الدار مثله .

وكان أكثر ما يحببني فيه وقتئذ أنه كان كثيراً ما يجود عليّ بجزء غير يسير من نصيبه من الطعام « المخصوص » ، وأقصد بالطعام المخصوص ، تلك الأنواع التي لا يتذوقها إلا السادة فقط ، والتي لا يكون للخدم نصيب منها إلا الرؤية والرائحة - أو مع أحسن الفروض - بقايا أو فتات لا تشبع من جوع ولا تغني من نهم . . وأذكر منها على سبيل المثال وقتئذ . . . « المنجة » . . . و « الجبنة الرومي » . . . و « عيش السراية بالقشدة » . وغيرها من الأصناف التي كنت أتحرق شوقاً إليها . . .

ومرت الأيام وبنفسي من السخط ما بنفس كل صبية في مثل سني تعمل خادمة . . ولكني لم أكن أستطيع سوى البقاء لأني كنت لا أعرف أين أذهب حتى أحسست في ذات مرة أن هذا السخط أخذ يزول من نفسي . . وأن شعوراً آخر قد حل محله . . ليس فقط بالرضا . . بل بالسعادة والغبطة .

ولم أكن أدرى وقتئذ سر ذلك الانقلاب الذى أصابنى والذى حبب إلىّ الدار وأهل الدار .. ولم أحاول أن أناقش نفسى فى سبب شعورها بالسعادة والغبطة ، بل اكتفيت بأن أتركها تنغمر فى ذلك الشعور الذى لا تدرى كنهه .

وأذكر أنى كنت فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة .. أى فى تلك السن التى يبدأ فيها النضج .. والتى تحاول المرأة فيها أن تطل من جسد الصبية .. وأذكر أيضاً أن محور اهتمامى قد أضحى ذلك الصبى الأصغر .. وأنى كنت أركز جهودى فى محاولة إرضائه وفى خدمته .. وقد يكون فى ذلك عرفان للجميل فقد كان الصبى ما زال على برّه بى وحدبه علىّ . وكان كثيراً ما يتغاضب مع أخيه أو مع أمه بسبب محاولتهم إيذائى لسبب أو لغير سبب .

أقول لك إنه قد يكون فى اهتمامى بالصبى عرفان للجميل .. ولكن الواقع أنه لم يكن كذلك ولكنه كان حباً !

لا تدهش ، ياسيدى ، ولا تتهمنى بالحمق إذا ما حاولت ، وأنا خادمة ، أن أحب سيداً لى لأن الحب لا خيرة فيه .. بل هو من الأشياء التى يضطر إليها الإنسان اضطراراً ، وإن المرء ليصاب به كما يصاب بمرض من الأمراض . فإن حق لنا أن نتهم مريضاً بالتيفود بالحمق لأنه لم يصب بمرض أخف

وطأة . . انفلونزا مثلا . . أو زكام ، لحق لك أن تتهمنى بالحمق لأننى أحببت سيداً . . ولم أحب خادماً مثلى .

لقد كان لا يمكن لى إلا أن أحبه . . لأن الصبى كان لا بد أن يحب . . لقد أحبه كل من حوله . . أمه وأبوه وأخوه وأصدقاؤه وأقرباؤه . . وكل بنات العائلة اللاتى لهن به صلة . . دعنى أصفه لك ، كما كنت أراه فى ذلك الحين . . فى نحوله وصفاء عينيه ، ونقاء نشرته ، وشعره الذهبى ، وأسنانه البيضاء الناصعة التى لم يكن أسهل على الإنسان من رؤيتها ، فقد كان دائم الضحك ، كثير المرح ، حلو الفكاهة .

وطويت حبى فى صدرى ، راضية بهذا العطف الذى كان يشاركنى فيه كل من حوله ممن يستحقون منه العطف كالشحاذين والكلاب الضالة والقطط الجائعة . . حتى كان يوم دفعنى فيه شيطان الحب إلى أن أتطلع إلى أكثر من الشفقة والعطف .

كان ذلك يوم خميس ، وقد حضر الصبى من المدرسة ، فطلب من أمه نقوداً لأنه سيذهب غداً فى رحلة مع أصدقائه . . ولكن أمه أنبأته أنه لا داعى لتلك الرحلة لأن بعض الأقرباء سيتناولون الغداء معهم فى الغد ، كما أنه لا يوجد معها نقود . . وبدت خيبة الأمل تظهر على

وجهه . . وأخبر أمه أنه قد اتفق مع إخوانه فلا يمكنه النكوص ، وأنه كان يتلهف على الذهاب إلى تلك الرحلة منذ زمن طويل .

ولكن المرأة أصرّت على ألا يذهب .. وألح الصبي فزادت المرأة إصراراً .. وأخيراً غادرها إلى حجرته وسمعت صوت بكائه ، وكنت أول من سمعه يبكى ، ولا أدرى ما الذى جعلنى لا أتمالك نفسى فأبكى أنا الأخرى .. لقد تمنيت لو استطعت أن أدخل عليه فأحتضنه وأ كفكف دمعه وأعطيه ما يشاء من النقود . . ولكنها كانت أمنية عسيرة التنفيذ .

وبعد برهة حضر الأب من عمله وعلم من الأم بما حدث فسمعته يؤاخذها على ذلك العناد الذى لا مبرر له . . ورأيته يدخل على الصبى فيربت عليه ويعطيه ما يريد من النقود .

ورأيت الصبي بعد ذلك ضاحكا متهلل الوجه .. وأقبل علىّ يحدثنى عن الرحلة التى سيذهب إليها فى الغد وطلب منى أن أجهز له بعض ما يلزمه .

وقبيل العصر خرجت من الدار لأبتاع بعض الحاجيات وانطلقت أعدو فى « حارة السيدة » حتى وصلت إلى « عم عبد المعطى البقال » فى أول « شارع السد » وطلبت منه ما أريد ، ثم مددت يدى فى جيب الجلباب .. فلم أجد النقود .

وحرت فى أمرى .. وتملكنى خوف شديد . لقد سقطت منى فى الطريق . . ترى كيف أستطيع العودة إلى البيت ؟ وترى ماذا يصيبنى من سيدتى عندما تعلم أنى قد أضعت النقود ؟ !

وعدت أدراجى فى الطريق مطأطئة الرأس دامعة العينين أبحث بعينى فى جوانب الطريق لعلّى أجد النقود هنا أو هناك . ولكن متى كان الإنسان يجد شيئاً يبحث عنه ؟ وعلى الأخص إذا كان نقوداً ! . .

وأخيراً جلست أنتحب على (الرصيف) . . ويخيّل لى أن غيبتى قد طالت ، فقد رأيت الصبى يقبل علىّ باحثاً عنى ، وعندما وجدنى أبكى ظهرت عليه الدهشة وسألنى عما بى . . فأنبأته أن النقود قد فقدت . . ولاح الحزن على قسماته برهة . . وسألنى كم كانت النقود . . فأخبرته بها . . ورأيته يفكر قليلا ، ثم انبسطت أساريره مرة واحدة وجذبنى من يدى قائلا : هيا إلى البقال .

ولم يعطنى فرصة للتفكير حتى أعرف ماذا ينوى أن يفعل بل أخذ يعدو وأنا أعدو خلفه حتى وصلنا وابتعنا الأشياء المطلوبة ، ومد يده فى جيبه فأخرج النقود وأعطاها للرجل .

وأدركت عندئذ أن النقود لا بد أن تكون نقود الرحلة التى كان يحلم بها والتى بكى لأن أمه رغبت فى حرمانه منها . .

وأحسست الحزن يعصف بي . . فقد كنت أنا التي سأحرمه هذه المرة !! .

ونظرت إليه وقلت له : إني سأنبئهم بالحقيقة .. حتى يردوا إليك نقودك . . . ولكنه نظر إليّ في غضب وقال لي : إياك أن تقولي شيئاً . . سأعرف كيف أتدبر الأمر .

وعندما عدنا قال لأمه التي كانت تستشيط غضباً . . إن الازدحام كان شديداً عند البقال وإنها لاذنب لها في هذا التأخير .

وفي تلك الليلة لم أذق النوم إلا لماما .. فقد كنت أفكر ماذا سيفعل الصبي في الغد وليس معه نقود . . وفي الهنيهات التي نمت فيها كنت أحلم أني قد عثرت على كنز ، وأني أخذت أحمل منه النقود إلى الصبي لكي يذهب إلى رحلته .

وفي الصباح خرج الصبي مبكراً بعد أن جهزنا له طعامه في حقيبته الجلدية وملأنا له « ترموس » بالمياه المثلجة .

وقبيل الغروب عاد وعليه غبار الرحلة .. وأخذ يصف لنا في صوت ملىء بالابتهاج ما رآه وما صادفه ، وكنت أعجب في نفسي كيف حصل الصبي على النقود . . ولكني علمت منه بعد ذلك أنه قضى طيلة يومه جالساً عند « عم إمام الحلواني » وأن الغبار الذي كان عليه كان من غبار الحارة وأن المعلومات التي أنبأنا بها لم تزد على ما قرأه في كتاب « القراءة الرشيدة » .

هذه هى الحادثة التى جعلت شيطان الحب يسلبنى نعمة القناعة بالشفقة والرضا بالعطف ، فأحاول أن أطمع منه فى حب كذلك الحب الذى يجيش به صدرى . . وإذا أنا أحس صراعاً فى نفسى . . فقد كانت المرأة التى تكمن فى تحاول أن تبرز إلى الوجود .

ومرت الأيام بعد ذلك وكل منا يسير فى طريق النضج ، أنا إلى فتاة .. وهو إلى فتى .. ووجدتنى أوجه عناية كبرى إلى زينتى - إن كان يمكن أن يكون هناك زينة لخادمة - واستطعت أن أحصل على مرآة صغيرة وضعتها فى صندوق ملابسى . وكنت أحتفظ بمشابك الشعر التى أعثر عليها ملقاة من شعر سيدتى على الأرض ، وكنت أحاول جهدى ألا أبدو أمامه إلا وأنا راضية عن منظرى . . والواقع أنى لم أكن قبيحة بحيث أيأس من الحصول على حبه أو إعجابه .. على النقيض لقد كان الكثيرون يقولون عنى إننى جميلة . . وكانت كلمات الغزل تلقى علىّ من كل جانب ، إذا ما سرت فى الطريق ، من الخدم والبوابين والباعة .. بل من (الأفندية) و (البهوات) فى كثير من الأحيان . ولمَ أذهب بعيداً وأخوه نفسه - وقد لا أكون كاذبة - إذا قلت وأبوه أيضاً ، قد بدآ يوجهان إلىّ نظرات الافتتان من طرف خفى ، وفى غفلة من الأم ؟

ولكنه هو .. هو وحده .. الذى كنت أتلهف عليه .. وأتمنى أن يحس أنى قد أصبحت امرأة .. لم يكن ينظر إلى أكثر من نظرته القديمة . ولم يرنى أكثر من خادمة مسكينة تستحق العطف .

وفى ذات يوم خرج أهل الدار جميعاً وبقيت فى البيت وحيدة وزين لى الشيطان أن أرى نفسى عندما أبدو كسيدة فقد وددت أن أرى هل أكون ذات وقع فى نفسه إذا أتاحت لى الظروف أن أكون سيدة ؟ وهل أنا أقل جمالا من أولئك السيدات اللاتى أبصرهن ؟؟

ودخلت حجرة السيدة وأخرجت أدوات الزينة وبدأت أزين وجهى وأمشط شعرى ، فلما انتهيت نظرت إلى المرآة فوجدتنى رائعة ، ولم تكن ملابس السيدة تناسبنى ، ولكنى مع ذلك أخذت أجربها ثوباً ثوباً ، لأرى كيف أبدو فيها .

وأخيراً انتهيت من تجربتها جميعا .. ووقفت أمام المرآة وأخذت أجرد نفسى من الثياب قطعة قطعة .. لقد رغبت فى أن أرانى كيف أبدو عارية .

يا لله .. إنى ما ظننت قط أنى رائعة كما بدوت .. هذا الصدر الممتلىء المستدير يبدو جامداً كأنه قد صنع من حجر ، وهذا الجسد المستوى بلا ثنيات ولا زوائد ، وهذا الخصر

الرقيق ، وهاتان الساقان الممتلئتان .. لقد أحسست الثقة تملأ نفسي ، والسعادة يفيض بها قلبي .. أجل .. لقد اطمأننت إلى أني سأستطيع الحصول على حبه .

وفي نفس المساء وجدته يجلس وحيداً في حجرة المكتب وكل من في الدار رقود ، وأحسست بلهفة شديدة عليه ، وتمنيت أن أهب نفسي له . . وكانت الفرصة سانحة . . ولم أكن أخشى أحداً . . إلا هو . . فقد خشيت ألا أفلح في إغرائه . . ولكني تذكرت صورتي وأنا أمام المرآة فعادت إليّ الثقة . . ودخلت إلى الحجرة . . ورفع إليّ عينيه وسألني عما أريد . . واضطربت بعض الشيء ولكني اقتربت منه . . وشعرت بالرغبة تعصف بي . . فلم أدر إلا وقد احتضنته بين ذراعي ووضعت فمي على فمه .

ولا شك أن الفتى قد اعترته دهشة شديدة .. فقد سادت لحظة صمت ، ثم رأيته يدفعني بعيداً عنه ، ويرفع يده فيهوى بها عليّ في صفعة لم أذق مثلها في حياتي قط .

ولم أحس يوماً ما بألم الخذلان ولا مرارة الهزيمة كما أحسست بهما في تلك الليلة .. لقد انسحبت من الغرفة في بطء وعدت إلى فراشي ، في المطبخ ، وارتميت عليه ، وقد أخذتني الرجفة كأنني في النزع الأخير .

لقد كرهت نفسى .. لأننى لا أستطيع أن أكرهه ..
وقلت لنفسى إننى المخطئة ، لأننى كنت واثقة أنه لا يخطىء ..
لقد كنت مغرورة ونلت جزاء غرورى .

ولكن لِمَ لا يكون كغيره من الناس ؟ لِمَ يأبى إلا أن يرانى كخادمة ؟ لِمَ لا ينزل مرة عن هذه « المثالية » التى هو فيها .. ؟ ترى لو كنت قد ذهبت إلى أخيه أو أبيه ، أو إلى أي مخلوق سواه ، أكان يمر بى سكون الليل كما مر معه .. أترى نصيبى منهم كنصيبى منه صفعة وازدراء .. ؟ أقسم أنى لو فعلت لكنت الآن مستلقية فى فراشهم .

ولكنى مع ذلك أحبه .. هو .. وأريده أكثر مما أريد أى شىء فى هذه الحياة .

وطال بى التفكير فى هذه الليلة وصممت فى النهاية على أن أترك الدار .. لأنى أريد حبه .. ولن أحصل عليه ما دمت خادمة .. فخير لى أن أخوض غمار الحياة .. ومن يدرى ؟ ربما ساعدتنى الظروف فصرت فيها شيئاً .. واستطعت أن أنتزع منه الحب والإعجاب .. وحتى لو لم أصر شيئاً .. فذلك خير لى من البقاء هنا كالمهاجر الصادى بجوار غدير حرّم عليه مسه ، وأغلب ظنى أنه حتى الشفقة التى لم أكن بها قانعة ، ستتبدل احتقاراً وازدراء .

وقبيل الفجر هربت من البيت وبنفسى لوعة وبقلبي حرقة .

ولا أظن هناك داعياً لأن أذكر لك تفاصيل تلك الفترة من الزمن التي مرت بي بعد ذلك ، ولكنى أؤكد لك أنى لم أستطع أن أصل إلى أول درجة من سلم المجد والشهرة إلا بعد أن أدمى حصى الطريق قدمى . . ومزّقت أشواكه جسدى . وأؤكد لك أن عينىّ لم تبصرا النور إلا بعد أن طالت بهما الحلكة . . وأنى قد رأيت فى هذه الفترة المظلمة أسوأ ما يمكن أن تراه امرأة فى الحياة الدنيا .

ومع ذلك فلم أنقطع فى تلك الفترة عن رؤيته قط . . ولكن دون أن يرانى أو يحس بى . . فقد كنت أعرف مواعيده وأعرف حركاته وسكناته . . وكان فى رؤيتى له غذاء لروحى الجائعة ونفسى الشريدة الظمأى .

وفى ذات ليلة ـ بعد أن أخذ نجمى يبزغ ويرتفع ـ كنت فى إحدى الحفلات وقد بدأت الغناء . . فإذا أنا ألمح وجهه بين الحاضرين ، وأصابنى اضطراب . . فقد كنت أتمنى منذ بدأت أعتلى قمة الشهرة . . أن يرانى مرة فى حياتى الجديدة . . وأن يحس أنى أستحق منه أكثر من الشفقة أو الاحتقار . . وتمالكت نفسى وبدأ الاضطراب يزول شيئاً فشيئاً ، وأخذت أفنى نفسى فى الغناء فقد كنت أحس أنى أغنى له . . له وحده .

وإنى لأذكر أن هذه الحفلة هى التى دفعتنى إلى قمة المجد دفعاً .. وأذكر كيف انهال علىّ المهنئون ، ولكنى لم أحس بلذة النجاح والانتصار ، إلا عندما وجدته يقبل علىّ ويشد على يدى مهنئاً .

إن من العبث أن أحاول وصف سعادتى فى تلك اللحظة ، فمثل هذه المشاعر لم تخلق لها الألفاظ التى تستطيع أن تعبر عنها .

لقد تسللت به من وسط الازدحام ودعوته إلى مرافقتى إلى بيتى . . وعند ما وصلنا إلى البيت سألته أن يصعد معى وأخيراً احتوتنا غرفة واحدة . . تختلف كثيراً عن الحجرة التى جمعتنا فى المرة الأولى . . بذلك العطر الذى يتضوع منها وذلك الجو السحرى الذى يملؤها . . وأنا . . أجل . . أنا . . لم أعد بعد خادمة تسللت من المطبخ بثيابها التى تفوح منها رائحة « الجاز والبصل » . . بل امرأة يسعد كثيرون من الناس بأن تشير لهم بتحية من يدها . . امرأة ذات ثوب أنيق يبرز من جسدها أكثر ما يخفى . . ويفوح منها شذى عطر ، لو نطق لقال : « ضمنى بين ذراعيك » .

وكنت أكثر حنكة فلم أحاول أن أتسرع فأضمه إلىّ كما فعلت فى المرة الأولى . . بل جلست أمامه وأخذت أغنى له بصوت خافت . . ثم نهضت بعد ذلك لأبدل ثيابى .. ووقفت

أمامه بالثياب الداخلية ، فرأيته يقترب منى . . ومد ذراعيه فاحتوانى بينهما .

يا للأمل الذى تحقق . . لقد أحسست بأنفاسه أخيراً تلهب أنفاسى ، وبشفتيه تضغطان علىّ شفتى . . وانتظرت أن يحملنى إلى الفراش . . ولكنى رأيته ينظر إلى الساعة فى يده ثم يدفعنى عنه برفق وهو يقول :

— لقد تأخرت !

ونظرت إليه فى دهشة شديدة وحنق . . ولكنه هزّ رأسه ببطء وقال :

— إنى متزوج . . .

« متزوج » ؟ ! . . أهكذا بعد طول الانتظار أجده قد أفلت من يدى . . ولكن ماذا فى أن يكون متزوجاً . . وماذا يضير زوجته التى تتمتع به ليل نهار . . أن أتمتع به ساعة أو ساعتين وأنا التى أدميت قدمىّ حتى وصلت إلى تلك اللحظة ؟ !

ووجدت من العبث أن أستبقيه . . فقد رأيت فى عينيه نظرة العزم والإصرار التى رأيتها فى المرة الأولى . . وأدار لى ظهره تاركا إياى غريقة فى ألم الخذلان ومرارة الخسارة تماماً كما تركنى أول مرة ، لا ينقصنى إلا الصفعة ، وحتى هذه لم يبخل علىّ بها . . فقد رأيته يدير وجهه إلىّ كمن تذكر شيئاً . . ثم مدّ

يده فى جيبه وأخرج بضع أوراق مالية تركها على المنضدة .

وغادر الحجرة وتركنى . . كما كنت . . خادمة ذليلة .

يا للرجل . . إنه يأبى إلا أن يكون « مثالياً » ، كما كان فى طفولته . . كم أود أن أكرهه . . ولكننى لا أستطيع .. لقد أمسكت بالنقود وحفظتها عندى لأنها شىء يذكرنى به .

ومرت الأيام والأشهر والسنون . . ولم أكن ألقاه إلا لقاء عابراً ، ولكنى كنت فى كل مرة ألقاه فيها أحس أننى لم أزل أحبه وأننى لا يمكن أن أكف عن حبه حتى أموت .

وأخيراً ماتت امرأته ، والتقيت به بعد ذلك . . ورأيت بارقة أمل قد سنحت لى ، فسألته أن يتزوجنى . . أجل ! أنا التى سألته . . ورأيته قد بهت فى أول الأمر . . تماماً كما بهت حين دخلت عليه الحجرة وأنا خادمة واحتضنته وقبلته . . ولكنه فى هذه المرة . كان . أكثر رفقاً وألين جانباً . . ولم يكن نصيبى منه صفعة . . أو على الأصح كانت الصفعة منه غير مقصودة . . أو . . من يدرى ؟

لقد قبل الزواج بى . . ولكن الزواج لم يكد يتم . . ولم أكد أحس أنى قد حصلت عليه بعد طول انتظار . . حتى أصابه مرض أخذ يشتد به ويتفاقم . . وبعد بضعة أيام . . هوى علىّ بالصفعة الثالثة — أو قل بالطعنة الثالثة —

وغادر الحياة .. وتركني في هذه المرة .. لا خادمة ذليلة .. بل نفساً بالية ، وروحاً ذاوية ، وامرأة مخذولة خاسرة .

° ° °

وصمتت المرأة بعد ذلك ، فلم تنبس ببنت شفة ، ونظرت إلى وجهها فرأيت الحزن قد تجسم في قسماته .. فأدرت وجهي إلى الناحية الأخرى وتركت دمعتين تنسابان من عيني .. وكان هذا هو كل ما علقت به على القصة عند ما سمعتها من المرأة ، أو .. عند ما أبصرتها من الزاوية الأخرى .



امرأة نائمة

« ... لقد انتهى بي الأمر الى أن أجزم لها أنها ما زالت نائمة ، وأن كل ما تراه ليس الا حلماً ... ولم لا ... أليست الحياة كلها أحلاماً وأوهاماً ... فعلام اليقظة اذاً ؟ ! ... »



هذه قصة امرأة .. قد أظلمها كثيراً لو رميتها بالجنون، رغم أن صاحبتي التي ذهبت بي لزيارتها .. قد أنذرتني سلفاً بأنها امرأة مجنونة .. وإن كان جنونها لا يزيد على أنها تعتقد أنها نائمة، وأن كل ما تفعله وتراه، لا يعدو أن يكون حلماً .

وأقول الحق إنني كنت أشعر، وأنا فى طريق لزيارة المرأة .. أنى سأجد شيئاً يبعث على التسلية، بل كنت أعتقد أنى لن أعدم وسيلة أعيدها بها إلى وعيها وأثبت لها أنها فى يقظة تامة وأنها ليست نائمة.

ومع ذلك، فقد لقيت المرأة وسمعت حديثها .. وأقسم أنه ما من امرىء استطاع أن يستذرف من عينى الدمع كما استذرفته هذه المرأة .. حتى لقد انتهى بي الأمر إلى أن أجزم لها أنها مازالت نائمة .. وأن كل ما تراه ليس إلا حلما .

أجل لقد كان ذلك خير عزاء لها .. ولِمَ لا .. أليست



الحياة كلها أحلاماً وأوهاماً ، فعلام اليقظة إذاً . . ؟!

هذه هى قصة المرأة كما قصتها علىّ . . وكما استطاعت ذاكرتى أن تعيها .

* * *

كان ذلك فى يوم من أيام الصيف القائظ ، التى يستيقظ

الإنسان فيها فيجد الشمس قد ملأت جوانب الحجرة ، حتى ليخيل إليه أن اليوم قد بدأ ظهراً ، وأن الشمس قد أشرقت فجأة من كبد السماء . فلا يحس المرء بذلك الصباح الرطب الندى ، بل يشتم من الجو حرارة خانقة تنذر بيوم من أيام الجحيم .

بدأ النزاع بيننا ونحن على مائدة الإفطار ، ولقد كنت حمقاء وقتئذ عندما مهدت السبيل لشيطان الشر أن يهبط بيننا ، إذ كنت أعلم قبل أن أبدأ الحديث أن ذلك الموضوع الذى سأطرقه سيؤدى بنا حتما إلى الشجار . ومع ذلك فقد طرقته . . فقد كنت متعبة الأعصاب ، منهوكة القوى ، عقب ذلك الأرق الذى أصابنى فى الليلة السابقة من فرط حرارة الجو ، وكنت أحس بضيق فى نفسى من ذلك الركود المميت الذى شمل كل ما حولى .

وكان موضع الشجار هو إصرارى على أن نسافر إلى الإسكندرية . . وإصراره على أنه لم يحن الوقت بعد للسفر ، فما زال لديه الكثير من الأعمال التى تستوجب بقاءه فى القاهرة . وكنت أعلم أنه على حق فى قوله ، ولكننى اتهمته بأنه يأبى إلا مضايقتى ، وأنه يستطيع أن ينجز هذه الأعمال بالحضور إلى القاهرة يوماً أو يومين فى الأسبوع .

وكان هادئاً فى مناقشته معى كل الهدوء . . ولكننى أعترف أنى قد استثرته حتى انتهى به الأمر إلى أن يترك المائدة قبل أن يتم طعامه .

ورأيته يتلكأ برهة قبل أن يغادر الدار . . لعلى أعدل عن غضبى فأسترضيه بكلمة طيبة .. ولكنى لم أفعل .. وأخيراً سمعت الباب يغلق ، وسمعت وقع قدميه تهبطان الدرج . . . فشملنى السكون . . وأحسست بأن الدموع توشك أن تفر من مقلتى . . ولكنى جاهدت فى حبسها . . وتمالكت نفسى . . فقد كنت عازمة على ألا أدع الندم يتطرق إلىّ ، وأن أصر على أنى لم أكن مخطئة فى خلق ذلك الشجار الذى لم يكن له أى مبرر ولا داع .

وتركت المائدة . . وكان علىّ أن أبدأ القيام بتلك الأعمال التى اعتدت القيام بها بمساعدة الخدم فى كل يوم . . من نظافة الدار إلى إعداد الغداء ، ولكنى كنت أحس بضيق وتبرم ، وأشعر بتعب يدفعنى إلى الرقاد فى كسل واسترخاء . . فدلفت إلى حجرة النوم واضطجعت على إحدى الأرائك وقد أمسكت بإحدى المجلات أقلبها بين يدى .. ولكنى قذفت بها بعد لحظات ، ورفعت رأسى فأبصرت بصورتى فى المرآة وبدأت أتأملها . . ثم حانت منى التفاتة إلى تلك الصورة المعلقة

على الحائط . . والتى تمثلنى بجوار زوجى فى ثوب الزفاف . . وقد أشرق وجهى بابتسامة مضيئة . . وشع من عينى بريق الأمل والهناءة .

وتنقل بصرى بين الصورتين : صورة الحائط ، وصورة المرآة . . أو صورة الماضى ، وصورة الحاضر .

يا للسنوات السبع الطوال .. لقد أطفأت بريق الأمل .. ومحت ذلك الإشراق الذى كان يضىء جوانح النفس وجعلت مكانه السخط والتبرم . . فبدا الوجه فى كآبة وظلمة .

ترى ما مبعث ذلك الشىء الخفى الذى يثير فى نفسى القلق وعدم الرضاء . . وما علة ذلك الشىء الذى يدفعنى دائماً إلى إثارة الشجار ، حتى لقد أضحت حياتى لا تكاد تخلو لحظة من شقاق وجدال ؟ !

إن العلة لاشك كامنة فى نفسى ، والداء مستوطن فى قلبى .

وسبحت ببصرى من النافذة وشرد ذهنى بعيداً ينقب فى زوايا الماضى حتى استقر به المقام فى بقعة بعيدة نائية . . ما زالت تبدو للعين نضرة مزدهرة . . فما استطاعت كف القدم أن تذبل ورودها أو تمحو شذاها . . فهى هى . . فى إشراقها ولألائها ، رغم تلك الظلمات التى تراكمت حولها من مر الزمن وكر السنين .

كان ذلك منذ تسع سنين خلت .. وكنت وقتذاك طالبة في الجامعة .. وكنت أحيط نفسي بجو ملىء بنشوة الأحلام . الأحلام الذهبية البراقة التي تجيد فتاة في الثامنة عشرة نسجها حول نفسها . . عندما يتفتح قلبها للحب . . فلا تكاد تغرس فيه بذور الهوى حتى تراها قد أورقت وأينعت .. وأضحت في غمضة عين روضة دانية القطوف وارفة الظلال .

وكان هواى في بادىء الأمر هوى من جانب واحد . . وكنت أكتفي من الحبيب بالنظر إليه وسماع حديثه .. وكنت أجد في ذلك كفايتي ولا أطمع في شيء سوى ذلك . . إذ لم يكن يخطر لي أنني سأستطيع أن أثير اهتمامه من بين ذلك الجمع من الفتيات اللاتي كنت أجلس بينهن . . فقد كنا جميعاً لديه سواء . . ولم يكن بي ما يميزني عنهن مما يجعلني أطمع في أن أكون محط أنظاره . . وحتى لو كنت ممتازة بأي شيء فقد كنت على يقين من أنه لن يكون له صدى في نفسه ، إذ كان قليل الاهتمام بنا .. وكان يبدو لنا دائماً أنه في عجلة من أمره ، فلا يكاد يلقى محاضرته حتى يفر هارباً دون أن يعطينا فرصة لمناقشته أو محادثته .

ومما كان يزيد في اعتقادي أني لن أجد لذلك الحب صدى في نفسه ، أني لم أكن عاشقته الوحيدة .. فإن كل الفتيات كن

عاشقات له . . والواقع أنه كان من الخطأ أن يُجعل مثله مدرساً لفتيات . . فقد كن لا يملكن إلا أن يقعن فى حبه .. ومع ذلك ، وبالرغم من كل ما سبق ذكره . . وبالرغم من قناعتى من الحب بأوهامه وأحلامه ، فقد بدأت بالفعل أثير اهتمامه ، ولا أدرى كيف تطور الأمر ، ولكنى أذكر أنه قد بدأ بأن عدوت وراءه ذات مرة فاستوقفته لأسأله سؤالا تافهاً ، فنظر إلىّ بحنق وهز رأسه ، ثم سار فى طريقه ، ومنذ ذلك اليوم أضحى يخصنى بشرحه ويكثر من التحدث إلىّ ، اعتقاداً منه أنى على جانب كبير من الغباء ، وكنت أنا أمعن فى ذلك لأسترعى اهتمامه ، وهكذا ظللت أستدرجه حتى وقع فى الشرك .

أجل ، لقد انقلب اهتمامه بالشرح لى إلى الاهتمام بشخصى ، وبدأت أدرك جلياً من نظرات عينيه أنى قد أصبحت عنده « ذات موضوع » .

وتطورت العلاقات بيننا ، وأصبحنا أكثر من مدرس وتلميذته ، حتى كان ذات يوم سألنى الزواج منه . . فلم أصدق أذنى لفرط مفاجأتى بسؤاله .

وتمت الخطبة .. وأنا أحس أن العالم كله قد أضحى بين يدى .

وحدث بيننا ذات يوم بعض المشاحنات التافهة التى كثيراً

ما تحدث بين الخطيبين . . ولا أدرى كيف تملكنى إذ ذاك شيطان الحمق . . فقذفت إليه بخاتم (الخطوبة) .

وقد يكون عذرى فى ذلك العمل الأحمق . . أنى لم أكن جادة فيه قط . . وأنى كنت على يقين من أنه سيعيده إلىّ بعد يوم أو يومين . . ولكنى أدركت بعد ذاك أنى كنت خرقاء . . وأن الظروف كانت أخرق وأجن ، فقد اضطر للسفر إلى الخارج بعد يومين . . وكان سفره فجأة وعلى عجل . . ومنعت كلا منا كبرياؤه من أن يخطو إلى الآخر . . فسافر دون أن أودعه .

ولم تكن غيبته طويلة فقد عاد بعد بضعة أشهر ، ولكنه عند ما عاد لم يكن وحيداً ، بل كانت معه امرأة . . أجل . . كانت معه زوجته !

وليس من السهل ، أن يتصور المرء وقع الصدمة التى أصابتنى وقتذاك . . فلقد كنت أشبه بصرح شامخ عالى الذرى رفيع البنيان . . أصابه صدع من أساسه . . فإذا هو قد دك فى الأرض دكاً .

ومرت الأيام ، وبدأت أعاود السير فى الحياة متحاملة على نفسى . . وتقدم عند ذاك لخطبتى قريب لى كان قد شاهد القصة من أولها ، وكنت أشعر أنه يكنّ لى الكثير من الحب

وإن كنت لا أحمل له سوى صداقة خالصة .

وفكرت كثيراً قبل أن أقبل زواجه . . وانتهى بي التفكير إلى قبوله ، وأرتنى الأيام أنى لم أخطىء بزواجه قط . فقد استطاع برفقه وحنانه أن يضمد جراح قلبي ، وأن ينسيني حبي الأول .

ومرت السنون الأولى من زواجنا وأنا أحس بالهناءة تملأ جوانحي . . لقد كنا مثالا لزوجين سعيدين .

ترى ماذا حلّ بي بعد ذلك فأفسد حياتى ، وملأنى بالملل والضيق ؟!

لا أظننى أستطيع الإجابة عن ذلك بالضبط . . ولكن الذى أذكره جيداً هو أن الملل الذى أصابنى ، والشقاق الذى تخلل حياتنا ، لم يبدأ إلا بعد أن قطنا دارنا الجديدة . . والتى تصادف وجودها بجوار دار صاحبي القديم هو وزوجته .

إنى لأذكر زيارتهما الأولى لنا . . وأذكر ذلك البغض الذى أحسست به يتدفق من قلبي نحو المرأة الأخرى .

وأذكر ذلك السؤال الأحمق الذى خطر لى . . ترى ماذا كان يحدث لو لم ألق بالخاتم فى وجهه فى ذلك اليوم .. وانتهى الأمر بنا إلى الزواج .

ولكن عدت سريعاً إلى نفسي واستنكرت ذلك الخاطر . . إني هانئة بزواجي فيجب ألا أفسد حياتي بمثل تلك السخافات .

وحاولت جهدي بعد ذلك ألا أكثر من رؤيته . . وألا أجعل من حطام الذكريات البائدة هيكلا يحجب ما أنا فيه من نعمة ، ويسلبني ما أنا فيه من رضا وقناعة . . . ومع ذلك فقد بدأت حياتنا بعد ذلك يعتورها الجمود والسآمة .

أجل ! إن العلة في نفسي والداء في قلبي ، فهذا الشجار الذي أثرته اليوم ، لم يكن هناك قط ما يدعو إليه . . فما كانت بي رغبة شديدة في الرحيل عن القاهرة ، لولا أن علمت أن الرجل الآخر سيرحل بامرأته إلى الإسكندرية . . ولست أستطيع الجزم بأني كنت أرغب في الرحيل خلفه ، ولكن من المحقق أنني كنت أكره أن تتمتع المرأة الأخرى بما أنا محرومة منه . يالي من حمقاء تحطم حياتها بيديها ! ! يجب عليّ أن أقتلع نفسي من تلك الحشائش الدخيلة التي تحاول أن تفسد عليّ زهرة حياتي . . يجب عليّ أن أشعر بالقناعة والرضا ، وأن أسعد بزوجي العزيز .

وهنا أحسست برغبة في النوم . . فتركت الأريكة ، واستلقيت على الفراش ، ورحت في سبات عميق .

ورأيت فيما يرى النائم أنى قد أحسست أن بالباب ضجة وضوضاء ، وأنى قد قفزت من فراشى فزعة خائفة . . وتملكنى خوف شديد وشعرت كأن يداً تعتصر قلبى . . لقد أحسست أن كارثة توشك أن تحل بى . . وكدت أتنبأ بما حدث قبل أن أراه . واندفعت إلى الباب ، فأبصرت رجالا يحملون جثة قد غطيت بملاءة بيضاء . . وأخذوا يقتربون منى قليلا ، فبدرت منى صرخة فزع . . ولم أعد أبصر أمامى شيئاً ، وسقطت مغشياً علىّ ، فقد كانت الصدمة أقوى من أن يحتملها بشر .

ووجدتنى بعد ذلك وحيدة فى الحياة ، كريشة فى مهب ريح عاصفة . . وأنى قد فقدت زوجى الذى مسح بحنانه سابق دمعتى ، وأزال بعطفه قديم لوعتى . . ولكنى عدت فبطرت عليه . . وكفرت بنعمته ، وأخذت أنغص – بسخافاتى – حياته وحياتى .

ومرت الأيام وأنا أحس فى محنتى بوحشة شديدة . . وتلفت حولى فلم أجد سوى صاحبى القديم يمد يده فى رفق ليعيننى على السير فى الحياة ، ويعرض علىّ فى صمت عطفه وحبه . . ولم أستطع أن أرفض ، فقد كنت دائماً أحس بضعف أمامه ، ولم يكن هناك أسهل من تركى تلك

الذكريات القديمة تندفع إلى رأسى لكى ألين له وأجيبه إلى كل ما يطلب .

وأخيراً انتهى الأمر به إلى الانفصال عن امرأته وإعادتها إلى بلدتها ، وبذلك خلا لنا الجو . . فأسرعنا باقتناص الفرصة التى أضعناها منذ سنين خلت ، وتم الزواج .

وكنت أحس بالزهو عندما أرى زوجى محط الأبصار ، وأعلم أنه ملكى أنا وحدى ، لقد كان حافظاً رونقه وفتنته ، تماماً كما كان يلقى علينا محاضرته ، وكنا لا نفعل شيئاً إلا أن نحدق فى وجهه .

وكانت حياتى الجديدة ، حياة ضجيج ومرح ، ملأى بالولائم والحفلات ، والنساء والرجال ، واستسغت الضجيج فى بادىء الأمر ، ولكنى بدأت أحس بالقلق منه ، وأخذت أشعر بالغيرة تتملكنى من هؤلاء النسوة اللاتى يتطلعن إلى زوجى ويحطن به .

وخيّل إلىّ بعد ذلك أن حبه لى قد فقد الكثير من حدته . . وأنى لم أعد لديه أكثر من متاع قديم ، وأنه دائم البحث عن متعة بين هؤلاء النساء اللاتى يحطن به هنا وهناك . وتذرعت بالصبر ، فقد كنت أشعر أنى ما زلت أحبه . . وقلت لنفسى إن من الخطأ أن أضيق عليه الخناق ما دامت

المسألة لا تعدو اللهو البرىء . . حتى وجدته ذات يوم عقب وليمة أقناها لبعض الأصدقاء وقد احتضن إحدى الصديقات بمنأى عن الأبصار .

وكتمت ثورتى فى نفسى ، ولم أخبره أنى رأيته . . حتى كنا فى ذات يوم وقد أخذ يعنفنى لأنى لم أنفذ بعض أوامره ، وهنا ثارت ثائرتى ، فقد أحسست أنى قد أصبحت عنده لا أزيد على خادمة ، وبدأت أقارن فى نفسى بينه وبين زوجى الأول ، وبين حياتى اليوم وحياتى الماضية .

وصحت به وأخبرته أنى قد برمت بالعيش معه ، وأنى أعلم كل أفعاله الشائنة ، وأنه مخلوق أنانى لا يرى غير نفسه ، وأنى لا أندم الآن على شىء كندمى على أنى لم أقدر زوجى الأول حق قدره .

ورأيته يبتسم قائلا فى سخرية :

ـــ أيتها الحمقاء . . كفى هذراً ، فأنا أعلم أنك لو أعطيت الفرصة مرة أخرى لما اخترت سواى . . . وعلى أية حال لا داعى للمقارنة ، لأنه لا محل لها ، فأنا حى وهو ميت .

وهنا أبصرت بشبح زوجى الراحل وقد قام بينى وبينه وأخذ يقترب منى فى سكون ودعة وقد علت شفتيه ابتسامته اللطيفة الهادئة ، فلم أتمالك نفسى أن ركعت أمامه وهتفت به :

ـ إنى أريدك . . . لا تذهب إنى فى حاجة إليك . . .
إنى لا أطيق الحياة بعيدة عنك . . إنى لا أريد ذلك الرجل . .
لا أريده !

ولكن الشبح أخذ يتلاشى فى هدوء حتى اختفى ، ولم يبق أمامى سوى الرجل الأنانى يبتسم ابتسامته الصفراء . . فارتميت على الأرض ناشجة باكية .

وهنا أحسست بيد تهزنى هزاً عنيفاً ، ففتحت عينى فإذا الخادمة توقظنى وهى تصيح بى : استيقظى يا سيدتى . . ما بالك تبكين ؟!

ونظرت إلى الخادمة فى دهشة وسألتها عن سيدها فأخبرتنى أنه لم يحضر بعد من عمله . وتنفست الصعداء ، فقد علمت أن كل ما مر بى من موت زوجى ، وزواجى بصاحبى الأول لم يكن إلا حلماً ، وأن زوجى العزيز المحبوب لم يمسسه سوء . . فأقسمت فى نفسى أن أجعل من ذلك الحلم عبرة وموعظة . . وألا أدخر وسعاً فى سبيل إسعاده .

ونهضت من الفراش وطلبت من الخادمة أن تنصرف إلى عملها ، ولكنها لم تكد تخطو خطوة واحدة حتى سمعت بالباب ضجيجاً ، وأحسست بقشعريرة تسرى فى جسدى .

يا لله .. لشد ما كانت تشبه هذه الضوضاء والصخب ذلك

الشىء الذى رأيته فى الحلم .. أترى الحلم سيتكرر مرة أخرى ؟! أترانى ما زلت نائمة ؟ أجل إنى فى حلم ، لا شك فى حلم .

واندفعت إلى الباب فرأيت الرجال يحملون الجسد ، وقد لف فى الملاءة البيضاء ، ولم أتمالك أن صرخت فى فزع :

ــ إنه حلم .. إنه حلم ..

وصمتت المرأة ثم نظرت إلىّ نظرات حزينة ، وقالت فى صوت أشبه بالأنين :

ــ إنى أنتظر عودته يا سيدى . أليس ما رأيته حلماً .. أو لم أزل نائمة ؟!!

وقفز إلى ناظرى منظر ذلك الرجل الذى رأيته يعبر الطريق فى إطراق ووجوم ، وقد فاجأته إحدى العربات المسرعة فطوته تحت عجلاتها وتركته أشلاء محطمة .

وأدرت وجهى لأخفى ما اعتراه من حزن وأسى ، وقلت فى صوت خافت :

ــ أجل ياسيدتى إنه سيعود . لقد كان كل مارأيته حلماً . إنك قطعاً ما زلت نائمة !!

امـرأة محرومة

« اني امرأة محرومة .. محرومة من الشيء الذي خلقت لأجله ... محرومة من نعمة الحياة التي تتوق اليها نفس كل أنثى ... محرومة من الزوج والبنين ... محرومة من كل شيء الا الفراغ والوحدة » .

هذه مذكرات امرأة مجنونة .. أو على الأصح .. امرأة محرومة حاولت أن تعوض نفسها عن ذلك الحرمان الذى أصابتها به الحياة . فنجحت فى ذلك إلى أبعد حد .. وإن كانت لم تسلم من أن يتهمها الناس بالجنون .. ولكن ماذا يضيرها أن يقولوا عنها مجنونة .. وإن كانت قد استطاعت أن تمنح نفسها ما قد حرمتها الحياة إياه .

ولقد لمحت المرأة مرة أو مرتين .. وهى حبيسة فى دارها .. فى شرودها وذهولها .. ونحولها وذبولها .. فلم أشك قط فى أنها لا يمكن أن تكون إلا مجنونة .. ثم أنبئت بعد ذلك بوفاتها .. فلم يدهشنى النبأ .. فقد كانت أقرب إلى الأموات منها إلى الأحياء .. حتى لقد خيّل إلىّ أنها هيكل أو شبح .. ثم استطعت بعد ذلك — بطريقة ما — أن أطلع على مذكرات اعتادت أن تكتبها من حين لآخر .. وأدهشنى



أن تكتب المرأة مذكرات لها .. وأقبلت على قراءتها بلهفة شديدة .. فقد كان بي شوق إلى أن أقرأ كتابة مجنون .. وخاصة هذه المرأة .. إذ كنت أود أن أعرف فيم كان ذهولها وشرودها .. وكيف كانت طريقة تفكيرها .

وأخيراً انتهيت من قراءة المذكرات .. فلم أحاول أن

أبرىء المرأة من الجنون . . حتى لا أثير جدلا . . ولكننى لم أستطع أن أمنع نفسى من التساؤل .. ماهو الجنون ؟ وماهو الحد الفاصل بين العاقل والمجنون ؟ !.

ألم يحس أحدكم ذات مرة بذلك الألم الذى ينتابه عندما يشعر بعجز أمام شخص قوى يحاول إيذاءه وهو لا يملك أن يرد الأذى ؟ . . ثم ألم يحس بألمه يزول وغضبه ينفىء عندما يخلو إلى نفسه ، فيتصور أنه قد حطم ذلك الشخص القوى وردّ عن نفسه ذلك الأذى ؟ أجل . . أوَ لم يحس بالكثير من الراحة لمجرد ذلك التصور ؟

ألم يحاول أحدكم عندما يحرم متعة من المتع ، أو لذة من اللذات أن يتلمسها عن طريق الخيال ؟ ! ألم يعجز أحدكم ذات مرة عن نيل امرأة جذبه إغراؤها . . فلجأ إلى الخيال لينالها فيه . . وأحس فى ذلك بالكثير من الرضاء ؟.

هل اتهم نفسه حينذاك .. أو اتهمه أحد .. بأنه مجنون ؟ إذاً فلِمَ نتهم هذه المرأة بالجنون وهى لم تفعل أكثر مما يفعله امرؤ حاول أن يتلمس متعته عن طريق الخيال . . ؟ !

على أية حال . . مجنونة كانت أم غير مجنونة . . إليكم مذكراتها . . فاقرأوها وقولوا ماشئتم . . فما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها :

« خمسة وثلاثون عاماً ؟ !! يا للسنين التى تمر فلا تترك لى سوى الألم .. ولا تخلف لى غير الوحشة والفراغ .. أية حياة تلك التى أحياها .. ما أشبهى بسائحة فى بيداء مقفرة جرداء .. لا ماء فيها ولا رواء .. ولا ظل ولا ثمر .. كلها سآمة فى سآمة وملل فى ملل .. لا أبصر سوى الأمل السرابى .. واللمحات الكاذبة .

إنى أنتظر وأنتظر . . وأحس بالعمر يتسرّب . . والأعوام تولى متسللة . . فتتملكنى لوعة . . ويغشانى أسى أليم . . ولكنى أتظاهر بالرضا والقناعة . . وماذا أستطيع غير ذلك .. وأنا لا أملك سوى التمنى والانتظار !! .

إنى امرأة محرومة . . محرومة من الشىء الذى خلقت لأجله . . محرومة من نعمة الحياة التى تتوق إليها نفس كل أنثى . . محرومة من الزوج والبنين . . محرومة من كل شىء إلا الفراغ والوحدة !!

ومع ذلك فلا يسعنى سوى الصبر وادعاء السعادة . . خشية السخرية .. وأنا التى لو كان الأمر بيدها لصاحت بكل ما فى صدرها من لوعة مكبوتة : « أريد زوجاً . . أريد بنين . . !! » .

خمسة وثلاثون عاماً . . مرت ثقيلة بطيئة .. فما وهبت لى

إلا زيادة فى العمر . . وزيادة فى الشعور بالحرمان . . إنى لأنظر فى المرآة فأرى هبتها جلية فى وجهى . . ذبول ونحول وشحوب .

لقد مللت الحياة . . ومللت العمل . . ما أسخف أولئك الذين يظنون أن المرأة يغنيها العمل عن الزواج . هم يظنون أن الزواج وسيلة للعيش . . أو مورد للرزق . . ما أشد حمقهم لقد كرهت ضجيج الحياة . . وضجيج العمل . . فهو ضجيج أجوف كالطبل ، قد خلا من موسيقى الإلف وتغريد البنين . إنى أحس بالرغبة فى أن أستريح من حياتى برهة . . إنى أتوق إلى شىء من التغيير أياً كان .

كم سرنى أن أنتقل إلى هذه الدار النائية فى إحدى الضواحى . . لا شك أن الصيف فيها سيكون خيراً منه فى جوف المدينة . . ولا شك أنى سأجد تسلية فى حديقتها الواسعة . . إنها تحتاج إلى كثير من العناية والتنسيق . . ثم إن أجرها أقل كثيراً من أجر الطابق الضيق الذى كنت أقطنه فى وسط المدينة . . فهى من تلك الدور التى يعرض عنها السكان فتظل خالية . . لا لشىء إلى لمجرد ما يشيعه عنها الناس من أنها « مسكونة » ، وما تجود به خيالاتهم عما رأوه فيها من جن ، وما صادفوه من أرواح وأشباح .

ولم أتردد برهة فى الانتقال إليها . . وقلت لنفسى ضاحكة : من يدرى ؟ عساى أن أجد فى الجن والأرواح ما يؤنس وحدتى . . ويذهب وحشتى .

وسرتنى حياتى فى الدار الجديدة . . فقد أحسست بشىء من التغير ، وخاصة أننى قد بدأت عطلة الصيف . . فصممت على أن أتمتع بحياة جديدة . . وأن أنعم بالحديقة والهواء . . وألا أفعل شيئاً سوى النوم والقراءة .

ومر الأسبوع الأول وأنا منهمكة مع البواب وامرأته فى تنظيف الدار من تلك الأتربة المتراكمة . . وفى تنسيق الحديقة وإزالة الأعشاب والحشائش . . حتى ذهب عنها ذلك المنظر الموحش الذى كانت تبدو به .

ولا أستطيع أن أنكر ذلك الشعور بالرهبة الذى كان يتملكنى فى بادىء الأمر . . عند ما كنت أذهب إلى الفراش بعد أن أطفىء النور . . أو عند ما أسمع فرقعة هينة أو صوتاً يصدر من هنا أو من هناك . . من تلك الأصوات التى لا يخلو منها أى بيت . . كصوت نافذة يغلقها الهواء . . أو قطة تقفز فى الحديقة أو تمشى على السطح . . ولكن الرهبة أخذت تزول على مر الأيام . . وحل محلها اطمئنان إلى كل ما فى الدار .

وفى ذات يوم جلست فى ركن ظليل بالحديقة . . وأخذت

أتسلى بقراءة إحدى القصص ، وقد جلست أمامى امرأة البواب ترتق بعض الثياب . . وأحسست بتعب من القراءة فألقيت بالكتاب جانباً . . وتثاءبت فى كسل . . وبدأت أجاذب المرأة أطراف الحديث .. حتى جرنا الحديث إلى ذكر تلك الإشاعة التى يطلقها الناس على الدار وما يرجفون به من أنها « مسكونة » . . وكيف تسبب ذلك فى أن تمكث الدار مهجورة طوال تلك المدة ، وقالت المرأة :

ــ أنا لا أنكر يا سيدتى أن هناك دوراً « مسكونة » ، ولكن الواقع أن هذه الدار بالذات ، « مظلومة » بين هذه الدور ، لأنى لم أر فيها شيئاً قط ، وكل ما سمعته عنها قصة قديمة لست أدرى مداها من الصحة ، وهى أن صاحبها الأول قد شيدها لتكون سكناً له ولزوجته الجميلة المحبوبة ، وأن حياتهما كانت نموذجاً لحياة هانئة ، وقد زادت سعادتهما بذلك الطفل الجميل الذى أنجباه ، والذى نما وملأ البيت تغريداً وترنيماً ، وفى ذات يوم غابت الزوجة عن البيت ، ثم اكتشف الرجل أنها فرّت مع عشيق لها تعوّدت أن تذهب إليه فى غفلة منه ، وكاد الرجل يصعق ، ولكنه تجلد وتمالك ، ووجد فى ولده العزاء كل العزاء ، وسرعان ماشفى الله جرحه وأذهب لوعته ، وبدأ يجد السعادة فى حياته مع

ابنه ، وأخذ يكرس لتربيته والعناية به كل وقته ، حتى كان ذات يوم وقد جلس الرجل فى الحديقة يقرأ ، فسمع فجأة صوت سقوط جسم يصطدم بالأرض ، وصرخة مدوية تشق السكون المخيم ، وقفز من مكانه كمن لدغته عقرب ، فوجد الصبي قد هوى من الشرفة وهو يلهو ، فدق عنقه ومات لساعته.

وهجر الرجل الحزين الدار فلم يعد إليها قط ، ولا يدرى أحد ما حلّ به بعد ذلك .. ربما قد جن .. وربما قد انتحر .. إنها قصة قديمة .

وانتهت المرأة من قصتها ، التى لا تدرى هى مداها من الصحة ، والتى قد تكون محض خرافة ، ومع ذلك فقد انتابنى من سماعها شعور بالحزن عميق ، وأحسست بعطف شديد على الرجل الذى ربما لم يكن له وجود إلا فى خيال المرأة ، أو فى خيال من قص عليها القصة .

ولا أدرى ما الذى جعل القصة تتجسم فى مخيلتى ، ولا أدرى ما الذى جعلنى أزج بنفسى بين أبطالها ، فأقارن بينى وبين الزوجة الخائنة التى وهبت لها الحياة كل ما حرمتنى إياه .. وهبت لها الزوج الوفى الأمين ، والابن الذى أتلهف عليه .. فركلت كل هذا بقدمها ، وفرت من عشها لا تلوى على شىء ،

أتراني لو كنت مكانها ، أكنت أفعل ما فعلت ؟! وتخيلت الرجل أمامي يعدو في الحديقة ضاحكا خلف الصبي . . وتخيلت أنهما زوجي وابني ، فأحسست بنشوة عجيبة ، وقلت لنفسي : إن المرأة الهاربة لا شك بلهاء مخبولة ، كافرة بنعمة الله .

وفي هذه الليلة بدأت أحس أول تغير يطرأ على الدار ، وخيّل إليّ أني أسمع وقع أقدام تسير في الحجرات . . وأحسست بخوف شديد ، ولكني وجدت الحجرات خالية فلم أشك أنني واهمة .

ومرّت الأيام ، فازداد شعوري بالأصوات والهمسات حتى كانت تمر بي لحظات لا أشك في خلالها أن هناك أشخاصاً غيري يتحركون في الدار ، ولكني لا أبصرهم . وفي ذات ليلة وقد جلست أقرأ قبل النوم ، سمعت الأصوات واضحة تمام الوضوح كأن أصحابها يجلسون في الحجرة المجاورة !!

وكان الصوت صوت طفل ورجل ، وسمعت الطفل يقول : « غن لي أبوح . . يا أبوح » .

وأجابه الرجل متسائلا : « ثم تنام ؟؟ » .

— أجل . . .

وبدأ الرجل يغني « أبوح يا أبوح كلب العرب مدبوح » .

وصاح الطفل فجأة متسائلا :

ــ من الذى ذبحه ؟ .

وتردد الرجل برهة قبل أن يجيب فى حيرة :

ــ لقد وجدوه هكذا مذبوحاً . . ولم يعثروا حتى الآن على القاتل . . .

ورغم ما أصابنى من خوف وقتذاك لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك بصوت مرتفع .. وخيّل إلىّ أن الصوت قد وصل إلى الطفل والرجل . . فقد كفا عن الحديث . . وتسللت إلى الغرفة المجاورة فلم أجد بها أحداً ! !

ومنذ ذلك الحين ازداد يقينى بوجود الرجل والطفل . . وبدأت أحس بهما فى كل مكان من الدار .. وأخذت أنصت إلى تلك الأحاديث التى تدور بينهما دون أن أرسل صوتاً أو حركة حتى لا يكفا عن الحديث . . فقد كنت أحس من وجودهما بنشوة عجيبة ، مشوبة بشىء من الخوف .

وخيل إلىّ أنى قد بدأت لعبة خطرة .. لعبة لم يحاولها أحد سواى . . قد يكون الطرف الآخر فيها من صنع الوهم ، ولم أجد ما يمنع من أن أستمر فى اللعبة ، ما دمت أحس منها بمتعة ، ولكنى صممت على أن أحيط نفسى بالكتمان وألا أنبىء أحداً بتلك الأشباح التى أحس بحركاتها وأسمع أصواتها..

فقد خشيت أن أتهم بالجنون . . على أنى لم أكن فى يوم ما أوفر عقلا منى الآن .

وبدأت أحاول أن أبصر الرجل وابنه ، فما كنت أسمع همساً أو صوتاً حتى أتسلل فى اتجاهه ، ولكنى كنت لا أرى شيئاً ، ومع ذلك فقد كنت واثقة من وجودهما . . أجل . . من المحال أن يكونا غير كائنين .

واستيقظت ذات صباح على صوت أشبه بصوت دراجة صغيرة من دراجات الأطفال ذات العجلات الثلاث تتحرك على أرض الصالة ، فمددت رأسى قليلا لأبصر الصالة من خلال الباب ، فرأيت عجباً .

لقد كان الطفل هناك . . بدمه ولحمه . . ووجنتيه المتوردتين وشعره الأصفر المدلى على جبينه ، وشعرت بغبطة شديدة ووجدتنى أناديه بصوت كالهمس ، ولم يبد عليه أنه سمعنى ، ولكنه اختفى مرة واحدة . . أجل لقد اختفى ، دون أن أعرف كيف اختفى ، لقد كان هناك منذ ثانية . . وفى الثانية التى تلتها لم يكن هناك . . !

وفى ذلك اليوم طردت الخادمة ، فقد رغبت أن أكون فى الدار وحيدة ، ثم رأيته كثيراً بعد ذلك يروح ويغدو فى الدار . . يضحك تارة ويصيح أخرى . . وبدأ يعبث

بأثاث الدار ، ويقلب المقاعد ليتخذ منها (حميراً) يمتطيها .

ولم يكن الطفل يرانى أو يحس وجودى ، ولم يكن صوتى يصل إلى سمعه ، ومع ذلك فقد بدأت أشعر أنه أصبح قطعة منى ، ولم أحاول أن أترك الدار بعد ذلك لحظة واحدة ، أو أقابل أحداً ، فقد سرتنى الحياة مع الطفل وأبيه ، وإن كنت لم أبصر أباه بعد .

وكنت أتهرّب من رؤية البوّاب وزوجته ، ومنعت البستانى من أن يباشر عمله فى الحديقة ، فقد كان الطفل كثيراً ما يلهو بعمل بيوت من الرمل فيها ، وكنت أكره أن يراه الناس ، وفى ذات يوم أقبلت علىّ امرأة البواب ورأيتها تنظر إلىّ نظرات بها كثير من الرأفة والحزن ، وأنبأتنى المرأة أنى قد هزلت كثيراً وأنى يجب علىّ ألا أسجن نفسى فى الدار على هذه الحال .

وشكرت المرأة وأنبأتها فى اقتضاب أنى أحس ميلا إلى الوحدة ، وأنى لا أرغب فى الخروج .. وتركتنى وهى تهز رأسها فى دهشة وحيرة .

ولم تكد تنصرف حتى قمت إلى المرآة ، وكانت هذه أول مرة — منذ بدأت أنهمك فى حياتى الجديدة — أقف فيها أمام المرآة ، وراعتنى تلك الصورة التى أبدو عليها ، وهالنى

ذلك الاصفرار والشحوب . . وذلك الشعر المهمل الشبيه بشعر امرأة مجنونة ، ومددت يدى إلى المشط لأعيد تمشيطه وتصفيفه ، ونظرت فى المرآة فلم أجدنى وحيدة !

أجل لقد أبصرته لأول مرة ، وقد وقف بجوارى يمشط شعره هو الآخر ، وقد بدا حلو التقاطيع ، جذاب الملامح ، طويل القامة ، متين البنيان ، وأحسست بفرحة لا توصف ، ثم التفت إليه فلم أجد شيئاً ، وأعدت النظر إلى المرآة فوجدت الصورة قد ذهبت أيضاً .

ثم اعتدت أن أبصره بعد ذلك . . هو وابنه . . ووجدتنى أكِنّ لهما حباً عجيباً ، أجل ! لقد أحببت هذين « الشبه كائنين » أكثر مما أحببت أى « كائن » فى هذه الحياة .

وحاولت أن أتحدث إليهما ، ولكنهما لم يسمعانى . . وحاولت أن أنظر فى أعينهما فلم يبصرانى ، وعندما كنت أتقدم لألمسهما كانا يتطايران فى الهواء .

وحدث ذات يوم وقد جلست فى إحدى الحجرات ، أن رأيت الطفل يدخل إلى الشرفة ويمد رأسه من فوق الحاجز ، وتذكرت القصة التى سمعتها من امرأة البواب ، وكيف سقط الطفل من الشرفة فدق عنقه ، فصحت به ناهرة إياه كيلا يطل من الشرفة . وكم كانت دهشتى شديدة عندما رأيت الصبى

يسمع صيحتى فيلتفت إلىّ ثم يعود إلى داخل الحجرة .

ومنذ ذلك الوقت والصبي يعرفنى تمام المعرفة ويبصرنى كما أبصره ، ويزدجر إذا ما زجرته ، ويطيع إذا ما أمرته . . بل أكثر من ذلك أنه كان يناديني ، ماما ، ويا للمتعة العجيبة التى كنت أحس بها وقتئذ .

ولم تمض فترة قصيرة حتى بدأ الرجل نفسه يحس وجودى ويرانى كما أراه ، وكان ذلك فى إحدى الأمسيات وقد جلس فى الحديقة فى سكون الليل ، وشرد ذهنه ، فراح فى تفكير عميق . وخيّل إلىّ أنى ألمح فى قسماته حزناً ولوعة ، لم أشك فى أنه يفكر فى امرأته الهاربة ، وأحسست نحوه حنيناً ، وتمنيت لو استطعت أن أنسيه إياها ، وأن أعوّضه عن حبها بما يخفف من لوعته ويذهب من حزنه .

ورغم معرفتى أن صوتى لا يمكن أن يصل إليه ، وأنى لو لمسته لتطاير وتحلل ، فقد وجدتنى أندفع إليه بقوة الحنان الذى يجيش فى صدرى ، ولمست ذراعه . فلم يتطاير فى هذه المرة ، بل انتفض ورفع إلىّ رأسه فى دهشة .

ومددت يدى إلى رأسه أتحسسه برفق ، فرأيته قد استراح إلىّ وزالت عنه تلك الدهشة ، ونظر إلىّ كأنى لست غريبة عنه ، أو كأنى امرأته المحبوبة التى ما فارقته وما هجرته .

وفى الصباح سمعت امرأة البواب تطرق الباب ، وترددت برهة قبل أن أفتح لها ، فقد كنت لا أريد أن أرى أحداً . . وكنت أحس كراهية شديدة للناس . ولكن المرأة المجنونة ألحت فى طرقها ، فقمت إلى الباب غاضبة وسألتها عما تريد ، ونظرت إلى المرأة وقد بدا عليها الفزع كأنما قد أبصرت شبحاً مخيفاً ، وتوسلت إلىّ أن أرحم نفسى وأن أزور طبيباً ، ولكنى صحت بها أن تغرب عن وجهى وأغلقت الباب خلفها بشدة ، وعادت المرأة أدراجها ووصل إلى صوتها وهى تقول لزوجها : « مسكينة . . لقد أصبحت مجنونة » .

مجنونة !! أنا مجنونة ؟؟ أيها الحمق .. إليكم عنى . أتركونى حيث أنا . . ماذا يهمنى منكم . . ومن دنياكم . . بعد لحظة أو بعد يوم .. أو بعد عام .. ستكفون عن الحياة .. وسأكف أنا كذلك . . وبعد حين من الدهر ، ستكف الحياة نفسها عن أن تسرى فى هذا الكون وسنصبح كلنا كهؤلاء الذين أعيش معهم والذين أعطونى ما حرمتمونى ومنحونى ما بخلتم به علىّ .

ماذا أخشى ولم أعد بعد محرومة . . ؟ وماذا تخشون علىّ شراً من الحرمان الذى كنت فيه . . هبونى كما تقولون مجنونة ماذا يضيرنى من الجنون وقد وهب لى ماحرمت ، وهب لى الزوج والابن . . لو كنت حقاً مجنونة كما تقولون . . « فأنعم بالجنون وطوبى للمجانين » ! . .

امــرأة .. ورماد

« هذه المرأة ليست رماداً ... ولن تكون قط رماداً ... انها جمرة يكسوها الرماد .. وما زال جوفها مضيئاً مشتعلا ... يضيء نور التضحية نفسها وتدفيء قلبها حرارة الايمان ... » .

الرماد هو ذلك الشيء البارد الخامد الذي يتخلف عن جمرة كانت تتأجج بالنيران وتسطع بالضوء . . وظل مَنْ حولها يجدون فيها دفئاً وهداية . . وكلما انبعثت منها حرارة أو شع منها ضياء .. خلف مكانه ذلك الشيء — أو اللاشيء — الذي نسميه رماداً . وهكذا تظل الجمرة تعطي عصارة قلبها وتهب خلاصة روحها دون أن تسترد مقابلا سوى الخمود لنفسها والرضا لمن حولها . . وهكذا تستبدل بالحياة فناء ، وبالضوء ظلمة . . وتمر بها الأيام . . وهي تتضاءل وتتضاءل . . حتى يحتويها الليل ذات مرة فإذا هي قد أضحت خامدة باردة ، وإذا كل مافيها قد أضحى رماداً في رماد .

هذا هو الرماد بمعناه المألوف . . أما في هذه القصة ، فهو لا يعني سوى امرأة . . أو بقايا امرأة . . اشد ما راعني ذلك الشبه بينها وبين الرماد الذي يتخلف عن الجمرة التي وهبت



من حولها ضوء نفسها وحرارة قلبها ، ثم تركوها بعد أن خبا منها الضوء وخمدت فيها الحرارة . . كأنها هشيم تذروه الرياح .

كنا صحبة من الخلان نتسامر فى منتدى عام ، وعرج بنا الحديث على ذكر البطولة والأبطال ، وذكر أحدنا ما قرأه

عن « توماس كارليل » من وضع البطل فى صورة إله وفى صورة نبى وفى صورة قائد . . فسمعت آخر يقاطعه :

— هل تحدث كارليل عن البطل فى صورة « خياطة » ؟

ونظر إلىّ المتحدث شزراً وقال هازئاً :

— أتهزل ؟

ولكن الآخر أجابه فى دهشة :

— كلا . . ليس فى قولى شىء من الهزل ، وأقسم إن كارليل لو عاش حتى سمع قصة هذه الخياطة ، لما توانى عن أن يضيفها إلى قائمة أبطاله .

وصمت لحظة حتى تطلعنا إليه بأبصارنا وأصخنا له . . ثم بدأ الحديث :

— هى مدموازيل ايرين . . وقد رأيتها لأول مرة عندما كنت خاطباً ، وقد رافقت خطيبتى إليها لقياس بعض « البروفات » . . وأقول الحق إن مرآها قد خذلنى خذلاناً شديداً . . فما كنت أتوقع قط أن أراها كما رأيت . . إذ كان الاسم . . « مدموازيل » . . يوحى إلىّ بأنى سأرى فتاة جميلة لا تقل جمالا بأية حال عن سميتها « مدام ايرين » بائعة العطور ولكننى لم أكد أبصرها ، حتى همست فى أذن خطيبتى فى دهشة : « أهذه مدموازيل ؟ ! » . . وكان لى العذر ، فقد رأيت

أمامى امرأة شمطاء ، وخط الشيب شعرها ، وملأت التجاعيد وجهها ، وبدت العروق خضراء بارزة فى يديها !

وتحدثت إلينا ، فوجدتها لطيفة المجالسة ، حلوة الحديث ، لا يبارح السرور وجهها ، ولا تفارق البسمة شفتيها ، فهى مثل لامرأة قريرة العين ، مغتبطة النفس .

وترددت عليها بعد ذلك بضع مرات مع خطيبتى . . فزادت بيننا أواصر الصداقة . . وكنت أحس من فرط رقتها وكرم نفسها . . أنها ليست مجرد حائكة ثياب . . بل أكثر من هذا ، كنت أراها : امرأة مهذبة .

وفى ذات يوم — قبيل الزفاف — ذهبت إليها وحيداً لأسألها عما إذا كان ثوب الزفاف قد تم صنعه . . فقابلتنى كعادتها هاشة باشة ، وجلست تتحدث إلىّ ، ثم قالت :

— ستسر عروسك بثوبها أيما سرور ، فلقد حاولت جهدى أن أتقن صنعه . . فجاء آية فى الابداع . . والواقع أنى لا أتقن شيئاً كما أتقن صنع ثياب الزفاف . . لأننى أجد لذة فى صنعها .

وصمتت المرأة ، وبدا عليها شىء من شرود الذهن . . ولم أدر كيف أعلق على قولها ، وإن كان قد جال برأسى أن لذتها فى صنع ثياب الزفاف شىء طبيعى ، فأغلب ظنى

أنها تستعيض بذلك عما حرمتها الأيام إياه . . وأنها تحيي بها بعض آمال ساورتها فيما مضى من العمر ، ولكن الظروف القاسية لم تجعل منها أكثر من آمال . وخيل إلىّ أن تلك اللذة التي تجدها في صنع ثياب الزفاف أشبه شيء بتلك اللذة التي يجدها مصور فقد حبيبته فعكف على رسم صورتها . . ليستعين بذلك على إطفاء جمرة في قلبه وحرقة فؤاده .

ورأيت الصمت قد طال ، فلم أجد بداً من قول بضع كلمات أزيل بها شرود المرأة ، فقلت لها مستضحكاً :

ـ لا بد أنك قد صنعت منها المئات .

ولكن المرأة لم تضحك ، بل هزت رأسها ببطء وأجابت بصوت خفيض :

ـ أجل . . لقد صنعت المئات . . وكان أولها ذلك الثوب الذي ما زال مستقراً دون أن تمتد إليه يد حتى وهت خيوطه ورق نسيجه ! .

وأدهشتني رنة الحزن التي بدت واضحة في صوت المرأة وهي التي ما رأيتها قط إلا مازحة ضاحكة . وخيّل إلىّ أني قد أثرت في نفسها مرارة ذكرى ، ونكأت في قلبها قرحاً ، وأدميت جرحاً ، وخشيت أن أجيبها بكلمات قد تزيد من لوعتها ، فالتزمت جانب الصمت ، خاصة وأني رأيت منها

ميلا ، للفضفضة ، . فتركتها تتحدث . . لعلّ حديثها يعود بها إلى سابق مرحها .

وبدأت المرأة تقص عليّ قصة حياتها . . قالت :

ثلاثون عاماً قد مضت على ذلك الحادث المشئوم . . وكان ذلك فى عام ١٩١٥ وقد حملوا إلينا جثة أبى بعد أن دهمته إحدى العربات وهو يحاول إنقاذ طفلة تعبر الطريق .. فنجح فى إنقاذ الطفلة ولكنه لم ينقذ نفسه . . وإنى لأذكر كيف شعرت وقتذاك بالوحدة والوحشة ، وكيف أحسست بالظلمات تكتنفنى من كل جانب ، وأنا أقف بجوار أخوى الصغيرين ولا عائل لهما سواى ؟ ؟ — إن صح أن مثلى يمكن أن تكون عائلا — فقد توفيت أمنا منذ بضع سنوات . . وكنت أقوم أنا لأخوى مقام الأم ، ولكنى أحسست بعد ذاك أننى لابد أن أكون أماً وأباً .

وتحاملت على نفسى وصممت على أن أكون قوية شجاعة ، ولا أظننى كنت أستطيع السير وقتذاك . . لولا تلك القوة الخفية التى كنت أحس بها تشد أزرى . . ولولا ذلك الإحساس بأن هناك من يعينى بحبه . . ويؤمن خوفى . . ويؤنس وحشتى .

وأذكر كيف التقيت به بعد الكارثة ، وكيف ضمنى إليه

فى رفق وحنان وسألنى الزواج ، فأنبأته أن لا بد لنا من الانتظار حتى يبلغ الصبى أشده ويستطيع أن يعول نفسه فى الحياة .. ونظر إلىّ دهشاً وأنبأنى أنه يستطيع أن يتولى أمرنا جميعاً . . ولكنى — رغم أنه لم يكن أحب إلى نفسى من تلك الأمنية — لم أكن حمقاء حتى أندفع معه . . فأحمله عبء زوجة وصبيين . . إذ كنت أعلم أن دخله المحدود لا يكاد يكفينا نحن الاثنين . وكنت أعلم أن ذلك المبلغ الذى يخصنى من معاش أبى ، والذى كنا فى أشد الحاجة إليه ، سيفقد بمجرد زواجى ، فلم أود أن أكون حملا ينقض ظهره . . وصممت على أن نتذرع بالصبر حتى أصبح فى غير حاجة إلى ما أصيبه من معاش .

ورأيت اليأس قد تملك نفسه ولكنى أحسست به يضمنى بين ذراعيه ويهمس فى أذنى : سأنتظر مادمت تريدين ذلك .

ومرت الأيام .. وبدأت أعمل بالتدريج فى حياكة الثياب فقد كنت ماهرة فى صنعها . ولقد رأيت أن مطالب الحياة تتطلب أكثر مما كنت أظن .. وكنت لا أبخل بشىء قط على الصغيرين : الصبى والصبية .. وكانت الصبية رقيقة الجسد وفى حاجة إلى عناية شديدة . . وكانت تحتاج من آن لآخر إلى زيارة طبيب . . أو شراء دواء . . وكنت أرى بالصبى ميلا

شديداً إلى صنع التماثيل .. وكنت أبصر فى عينيه شعاع نبوغ وطموح .. فصممت على ألا أجعله يخبو .. بل تعهدته بالعناية والرعاية . . ولم أبخل بشراء كل ما يلزمه من أدوات النحت .

وانصرم عاما ١٦ و ١٧ وبلغ الصبى الخامسة عشرة ، وبلغت الصبية الحادية عشرة ، وكنت أقنع من صاحبى بلقاء جميل بين حين وآخر . . نتمتع فيه بأحلامنا العذبة . . حتى التقيت به ذات يوم ، فأنبأنى فى سكون أنه سيذهب إلى ميدان القتال .

كم أذكر ذلك اليوم . . إنه منقوش فى مخيلتى كأنما حدث بالأمس فقط . . وهل أستطيع أن أنسى ذلك الدفء الذى أحسست به فى صدره ، وأنفاسه التى كانت تلهب وجهى ، وصوته الذى يهمس فى أذنى : كم أنت جميلة . . وكم أحبك . . كم أكره أن أتركك وحيدة فى هذه الحياة العاصفة . . كم أود لو احتويتك فى بيت صغير جميل حيث أضعك موضع السيدة وأومنك من خوف وأريحك من عناء !!

ولم أكن أحس بلهفة إلى شىء قدر لهفتى إلى ذلك الشىء الذى همس به فى أذنى . . ذلك البيت الصغير الجميل الذى يحدثنى عنه ، والذى سيضعنى فيه موضع السيدة . . بل لقد كنت أرى السيدة شيئاً كثيراً . . وكنت أحس أنه يكفينى

جداً أن أكون موضع الخادمة . . ما دمت خادمته هو . . هو وحده .

وافترقنا بعد ذلك . . وبدأت أتلمس التعزية عن فراقه بطريقة قد تكون عجيبة بعض الشيء ، ولكنها كانت لي خير سلوان . . لقد بدأت أصنع لنفسي ثوب زفاف . . وكنت أسترق الساعات فأخلو إلى نفسي وأنهمك في صنعه . . وقد تملكتني نشوة عجيبة وشملني جو من الهناءة ممتع لذيذ ، لكأن للثوب أجنحة تطير بي إلى عالم الغد الجميل والمستقبل الحلو . . فأبصر بنفسي بين أحضانه وتحت أنفاسه : زوجين سعيدين .

وأخيراً انتهت الحرب . . ودقت نواقيس السلام . . وعاد إليّ سالماً .

ولم أستطع أن أغالب تلك الدموع التي انهمرت من عيني وقد احتواني بين ذراعيه بعد طول غيبة ، ومضت برهة طويلة دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة ، وقد وضعت رأسي فوق صدره ، وأحسست بأصابعه تتخلل شعري برفق وهدوء . . وأخيراً سمعته يهمس :

ـ لقد طال بنا الانتظار .

فأجبته بصوت تفيض منه السعادة :

ـ أجل . . وليس بنا من حاجة إلى الانتظار بعد .

ولم أكن أشك لحظة عند ما قلت له ذلك . . أن هناك ما يستدعي انتظارنا فقد أتم الصبي دراسته الثانوية . . وهو يستطيع بعد ذلك أن يحصل على عمل يعول به نفسه .

ومع ذلك . . فقد أقبل عليّ الصبي بعد بضعة أيام . . وجلس إليّ ممسكا بيدي برفق بين يديه ، ورفع إليّ وجهه الهادىء ، وعيناه تتألقان ببريق الطموح ، وتوحيان إلى الناظر إليهما أن صاحبهما نابغة عبقري . . ثم سألني في هدوء ورقة أن كان يمكنه الالتحاق بمدرسة الفنون ، حتى يتلقى أصول النحت وحتى يصير مثالا عظيما فلا يقضي عمره في عمل مغمور .

ووجمت برهة . . ثم أخبرته أني سأنبئه في الغد .

وفي المساء التقيت بصاحبي ، فأنبأته بالأمر ، وسألته ، وفي نفسي لوعة شديدة ، إن كان يمكننا الانتظار عاماً آخر حتى ينتهي الصبي من دراسته الأخيرة .

ونظر إليّ صاحبي في ذهول ويأس ثم قال :

ـــ عاماً آخر ! ! أتظنين أننا قد كتبت علينا التضحية في سبيل الآخرين ؟ إن العمر أقصر من أن نضيعه عاماً فعاماً .

ثم غادرني في سكون والحزن يفيض من نفسه .

وتملكتني إذ ذاك لوعة . . وعصف بي الأسى . . فقد ساءني أن أسبب له ذلك الحزن . . وتبينت أنه لو كان الأمر

يقتصر على أن أضحى بنفسى . . لاستطعت احتماله . أما أن أشركه فى تلك التضحية . . فذلك مالا أقوى عليه .

عزمت على أن أنبيء الصبي بحقيقة الأمر .. وأن أسأله أن يقنع الآن بالعمل .. ومع ذلك فقد كنت أحس بالخجل من أن أقول له ذلك .. ورأيتنى أتهرب من لقائه فى تلك الليلة .

وفى الصباح لم أستطع لقاءه ، فقد خرج قبل أن أستيقظ فحمدت الله لأنى كنت لا أدرى كيف تطاوعنى نفسى على أن أصدمه بحديثى . . وقبيل الظهر رأيته قد عاد إلى الدار . . أقبل علىّ باسماً ، فأحسست بالاكتئاب يملؤنى ، فما تعوّدت قط أن أرفض له طلباً مهما كان تافهاً . . فكيف بى وأنا أحاول أن أطفيء ذلك الشعاع من الطموح الذى يضيء نفسه .

ورأيت الصبي قد مدّ يده إلىّ بحفنة من النقود . . فسألته دهشة من أين له بها ، فأنبأنى ببساطة أنه قد سمع حديث الأمس وأنه قد تسلّم عمله منذ اليوم .

وأحسست برجفة تنتابنى . . ووجدتنى أسأله هامسة :

— ولكن هذا مبلغ كبير !!

وأجابنى برفق وحنان :

— لقد بعت كل ما أملكه من أدوات النحت ، وما لدىّ من تماثيل . . حتى أقدمه لك هدية زواجك .

وهنا لم أستطع أن أمنع دمعتين طفرتا من عيني ، واحتضنت الصبي . . وقد أحسست أن تضحيتي قد تضاءلت بجانب تضحيته .

وأمسكت بالنقود . . وغادرت الدار . . فاستعدت للصبي أدواته ، وصممت على أن يتم دراسته .

وعندما التقيت بصاحبي أنبأته بما فعلت ، فنظر إلىّ نظرته إلى مجنونة ، وقال في يأس أنه لن ينتظر أكثر من ذلك . . ثم انصرف عني دون أن يلقي إلى كلمة وداع .

وطالت غيبته . . حتى فوجئت ذات يوم بأن قرأت في إحدى الصحف نبأ خطبته . . وأنه سيتزوج بعد أسبوع ! !

وفي يوم زواجه أحسست بدافع لا يقاوم يدفعني إلى أن أذهب إلى الكنيسة ، وهناك اندسست بين الناس دون أن يشعر بي أحد ، وتطلعت بعيني فأبصرت بالعروس وقد ارتدت ثوب الزفاف الذي طالما حلمت به . . ونظرت إلى الثوب الناصع ، وتذكرت ذلك الثوب الذي يرقد في مضجعه ، ثم تسللت عائدة إلى البيت كأنني شبح يسري . . ! !

ومرت الأيام . . وتزوج الصبي ورحل إلى داره . . ثم تزوجت الصبية ورحلت إلى دارها ، وبقيت وحيدة لا يؤنسني إلا ذلك الثوب الذي صنعته في غمرة الأحلام .

وإنى لأجلس إلى نفسى أحياناً فأفكر فى مبلغ ما فعلت من تضحية . . فلا أكاد أحس أنى فعلت شيئاً . . فقد تمتعت بالحب فى زمن الصبا ، وحييت بعد ذلك حياة مستقرة هانئة هادئة .. فما بت ليلة على الطوى ، وما استلقيت مرة على قارعة الطريق أرتجف من البرد دون أن يستر جسدى سوى خرق بالية . . .

أجل . . . عندما أفكر فى أولئك الذين يتألمون ويتعذبون . . أولئك المساكين الذين شردتهم الحياة فهاموا على وجوههم . . أولئك الذين أهلكهم البؤس وأضنتهم المسغبة . . الذين لم يروا فى دنياهم حسنة ولا أحسوا متعة . . عندما أفكر فى اليتامى الذين روعتهم وحشة الحياة ، والذين عاشوا فيها غرباء لم يرو نفوسهم الصادية عطف ولا سقى قلوبهم الظامئة حب ولا حنان . عندما أفكر فى أولئك الضالين الذين أدمى شوك الضلال نفوسهم ، وأحرق جمر الرذيلة قلوبهم ، الذين لم يذوقوا قط حلاوة الإيمان ولا لذة اليقين .

عندما أفكر فى كل هؤلاء . . وعندما أقارن نفسى بأولئك الذين يستشهدون فى سبيل الله وفى سبيل أوطانهم ، أولئك الذين يضحون بأنفسهم لكى يهيئوا لغيرهم حياة أفضل . . عندما أقارن نفسى بهم وأقارن تضحيتى بتضحيتهم

أجدنى قد تضاءلت وأجدها قد تضاءلت .. حتى أحس إننى لم أفعل شيئاً .

* * *

وصمتت المرأة ورأيت المرح قد عاد إلى وجهها مرة أخرى ، ومع ذلك فقد أحسست الحزن يملأ نفسى ، وأكبرت فيها تضحيتها ثم إنكارها التضحية ، ووجدتنى أشعر باللوعة رغم أنها قد حاولت أن تبدو راضية قانعة ، وتظهر أنها لم تفعل شيئاً .

ونظرت إليها ، وإلى شعرها الأبيض ووجهها الذى ملأته التجاعيد ، وتذكرت الجمرة التى وهبت لمن حولها دفئاً وهداية ثم خمدت فأضحت رماداً فى رماد .

* * *

وسكت صاحبى ، فقد انتهت قصته .

ولكننى وجدت كهلا كان يجلس بجوارنا ، وكان قد سمع القصة من أولها إلى آخرها ورأيته يدنو منا وأخذ يقول لصاحبى :

— لشد ما أخطأت الظن ياسيدى ، إن المرأة التى ذكرت قصتها ليست رماداً ، ولن تكون قط رماداً .. أتعرف الجمرة التى يكسوها الرماد وما زال جوفها مضيئاً مشتعلا ؟ إنها جمرة

من ذلك النوع .. يخيّل للناظر إليها أنها رماد، وما زال النور يضيء نفسها، والحرارة تدفىء قلبها.

وصمت الرجل، ثم أشار إلى نفسه وقال:

ـ الرماد هنا .. الرماد هو ذلك الجسد الذى لم يستطع الصبر ولم يحتمل التضحية .. ومل الانتظار .. فترك حبيبة العمر وأقبل على أخرى .. ماتت بعد فترة من الزمان .. ورأى نفسه يسير بعد ذلك وحيداً .. كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

لقد كان الرجل هو صاحب المرأة الذى هجرها !!

أجل، لقد كان هو .. الرماد ... !!



امرأة وظلال

« . . . وتركت تلك النعمة ، التي كانت
تتهافت عليها ، تتسرب من بين أصابعها ..
واكتفت منها بذكريات باهتة تعيش
في ظلالها . لأنها قد تعودت حياة الظلال »

مافني الإنسان شيء في هذه الحياة كالظلال، وأعني بالظلال، ظلال الحقائق التي يمر بها المرء، فتسعده أو تشقيه، وتضحكه أو تبكيه.. ثم يطويها الزمن في مره، وتنأى بها الأيام في كرها.. فلا يعود يبصر منها إلا ظلالا ذاكنة خلفتها تلك الحقائق بعد أن نأى بها الزمن.

ينظر المرء إلى هذه الظلال فيحس منها بمتعة. ويفتنه مرآها كما لم تفتنه الحقائق نفسها التي خلفت هذه الظلال.

° ° °

وإني لأعرف نوعاً من الناس، قد لا أكون مخطئاً إذا سميتهم هواة ظلال، وعشاق ذكريات، فهم يعيشون دائماً فيما مضى وما غبر.. لا يكادون يحسون بحاضرهم إلا إذا طوته الأيام فأصبح ماضياً، ولا يشعرون بالمتعة إلا بعد أن تصبح ذكرى، ولا يحسون بلهفة على مباشرة المتع.. ولكن يحسون بلهفة على العيش في ظلالها..



وأغلب ظني أن هذه المرأة التي سأسرد قصتها هي واحدة من هذا النوع الذي نسميه : هواة الظلال .

كان الوقت قبيل الغروب ، وقد مالت الشمس نحو الأفق ، وأرسلت أشعتها على الأوراق الصغيرة المتكاثفة ، والزهور الحمراء التي كست أشجار البانسيانس الممتدة على

الطريق القائم على إحدى ضفتى النيل فى الجزيرة . . فبدت الأشجار كأنها رؤوس براكين مشتعلة .

وفى إحدى الحجرات المطلة على الطريق . . تسللت الأشعة الحمراء من بين أوراق شجرة قائمة أمام الدار ونفذت من خلال النافذة الواسعة ، فصبغت الحجرة بلون أرجوانى ، وسقطت ظلال الأوراق على أرض الحجرة وعلى جدرانها وأثاثها . . وقد بدت فى سكونها ولونها الداكن ، كأنما قد رسمتها ريشة فنان ، لولا ذلك الاهتزاز الخفيف الذى تبديه عند ما تهب على الأوراق نسمة هادئة من أنفاس الصيف الناعمة الرقيقة .

وعلى أحد المقاعد جلست امرأة . . ما زال يبدو عليها الكثير من جمال الصبا ونضارة الشباب .. وقد مدّت ساقيها ، ومالت برأسها إلى الوراء ، وسبح بصرها فى الأفق البعيد . . وبدا وجهها من خلال الظلال التى تسللت من النافذة ، وقد علته لمحة من أسى ، ومسحة من حزن واكتئاب . . وأمسكت بين أصابعها بقطعة من الصوف وإبرتين طويلتين ، ثم تركت يديها تسقطان فى حجرها فى كسل واسترخاء .

وأخذت المرأة تستعيد فى ذهنها ما حدث منذ لحظات ، وتذكرت كيف تركت تلك المتعة التى كانت تتلهف عليها ،

تتسرب من بين أصابعها . . واكتفت منها بذكريات باهتة تعيش فى ظلالها ، لأنها قد تعودت حياة الظلال .

تذكرت كيف فاجأها بدخوله عليها ، وكيف أنبأها فى صوت هامس متلهف أن امرأته قد ماتت ، لقد تركها مشدوهة مأخوذة . . فهى لم تكن تتوقع قط أن يعود إليها ولا أن يخبرها أنه قد أضحى حراً طليقاً . . وبدا وجهها شاحباً وسقطت يداها على ساقيها ولم تنبس ببنت شفة .

وأمسك الرجل بيديها بين راحتيه ، ثم قال لها فى رفق :

ـ لِمَ لا تتكلمين ؟ لِمَ هذا الذهول ؟ ترى هل فاجأتك؟

ـ وأى مفاجأة !!

ـ كان يجب علىّ أن أكتب إليك ، ولكنى لم أستطع الانتظار ، ولم أكن أفكر فى شيء سوى المجيء إليك ، فقد كنت أبصرك بعين الوهم جالسة فى مقعدك هذا ، وقد بدا وجهك من خلال الظلال تماماً كما يبدو الآن .

ونظرت إليه بعين تائهة ، وذهنها ما زال فى شروده وذهوله ، وحاولت أن تتمالك مشاعرها ، وقالت فى هدوء :

ـ أجل . . لقد فاجأتنى عودتك ، كما يفاجأ كل امرىء يبصر بالظلال تتجسم فتعود مرة أخرى حقائق ملموسة . . لقد عوّدت نفسى حياة الوحدة ، فتعودتها واطمأنت إليها .

وطردت من مخيلتي كل أمل في عودتك ، وبدأت أشعر بالهدوء والاستقرار .

واقترب منها الرجل وأمسك بوجهها بين كفيه ، وتأمله برهة ، ثم اقترب بشفتيه من شفتيها ، وضغط عليهما ضغطاً خفيفاً . . . ونظر إلى عينيها فلم يجد بهما تلك اللهفة المعهودة ، ولم يحس فيهما ذلك الشوق الذى كان ينتظر . . . وأحس بالخيبة تملأ نفسه . . . أهذه هى القبلة التى كان يحلم بها طوال تلك المدة !

وترك وجهها فى سكون ، وعاد يجلس على مقعد قبالتها . وساد الصمت برهة . . . وتحدثت المرأة لتقطع ذلك الصمت فسألته فى غير اكتراث :

— أكان مرضها طويلا ؟

— عشرة أيام .

ثم أردف فى صوت يشوبه اليأس :

— كنت أظن أن عودتى ستسعدك ... وأنك ستلقينى بأحر شوق وأشد لهفة .

ونظرت المرأة إلى الظلال التى تتراقص على أرض الحجرة ، وقالت فى صوت هامس كأنما تحدث نفسها :

— إنى لا أطمع فى أكثر مما حصلت عليه ... إنى قانعة

راضية ، فعندما تعطينا الحياة زهورها يجب أن نكتفى منها بعبيرها والنظر إليها ، ونتركها تبتعد دون أن نحاول قطفها . فيبق عطرها وسحرها فى رؤوسنا مدى الحياة لأن قطفها إن لم يدم أيدينا فسيرينا هذه الزهور ذابلة بعد برهة قصيرة .. ويرينا أوراقها تتساقط فى الثرى وتختلط بأديم الأرض ، ولا نعود نبصر فيها بعد ذلك سحراً ولا روعة ، أجل . . . عندما نبصر أجمل ما فى الحياة فإن خير ما نفعله هو أن نقنع بالذكرى .

ورفع الرجل وجهه وهز رأسه متسائلا :

— أو تظنين حقاً أننا قد أبصرنا أجمل ما فى الحياة ؟

وصمتت المرأة برهة ، وسبحت ببصرها من خلال النافذة وأجابته كالحالمة :

— أجمل مافى الحياة ؟ ! وأى شىء هناك أجمل من لقائنا أول مرة ؟

وأحس الرجل بنشوة . . لقد بدأ هو الآخر يندفع إلى حياة الظلال ! ! ووجد نفسه يقول وقد أثملته الذكرى :

— إنى لأذكر ذلك اللقاء كأنما حدث بالأمس فقط ، وأنى لأكاد أبصر وجهك كما أبصره الآن ، ما تغير فيه شىء ولا تبدّل ، فأنت أنت فتاة الأمس ، امرأة اليوم . . حتى هذه الظلال التى بدا وجهك من خلالها ، هى هى . .

يا لك من امرأة عجيبة ! . لقد كانت الظلال تستهويك دائماً .. لقد كانت تفتنك وتفتن الناس بك .. كم كنت رائعة عند ما وقع بصرى عليك أول مرة ، وقد بدا وجهك مضيئاً مشرقاً ، من بين أوراق الذرة العريضة الخضراء ، التى ألقت ظلالها الداكنة حول وجهك فزادت فى إشراقه حتى لكأنه بدر قد أطل من خلال السحب القاتمة ، فأشرق فى دياجير « ليل قاتم الأعماق طام .. » وأبصرت فى عينيك تلك النظرات الحالمة المستسلمة .. ورأيت شفتيك الممتلئتين فى إغراء وفتنة ، المضمومتين فى لين ونضارة .

وعرتنى إذ ذاك هزة ، وانتفضت « كما انتفض العصفور بلله القطر » . وقلت لنفسى : إنها هى ، لقد وجدتها أخيراً ، حبيبة العمر التى أعيانى البحث عنها وأضنانى الشوق إليها . واندفعت إليك فى حمق طائش .. وأمطرتك وابلاً من الأسئلة .. من تكونين ومن أين ، وإلى أين ، وعلمت أنك قد أتيت لزيارة عمك فى ضيعته .. وأنك سترحلين فى الغد .. وعدت معك إلى القاهرة فى اليوم التالى رغم أنى لم أنجز شيئاً مما أتيت من أجله .. ومنذ ذلك اليوم وحياتى قد مسها سحر بدّل كل ما فيها وقلبها رأساً على عقب .

لقد شعرت وقتذاك أنى لن أستطيع الحياة بدونك ..

لقد وجدت فيك قطرات الماء التي يصادفها ضال قد شفه الظمأ في صحراء جرداء ، وأنهكه العدو وراء سراب خداع خلاب ، ومع ذلك فلم أكد أمد يدى إلى تلك القطرات لأروى منها غلتى . . حتى وجدتنى مقيداً مكبلا . أجل لقد كان ثمة حمل يثقل كاهلى وينقض ظهرى .

كنت متزوجاً . . وعلم الله أنها ما أسعدتنى مرة واحدة ، ولكنه كان زواج مال . . وما كنت راغباً فى مال ولا ثروة ، ولكنى كنت صغيراً وقتذاك . . وكان أبى يراها فرصة العمر . . وانتهت المسألة فى لمح البصر ، ولم أحس حينذاك أنها ستكون قيداً ثقيلا ، ولم أحاول أن أنظر إلى الأمر نظرة جادة .

ومرت بى الأيام ثقيلة مملة ، وبدأت أبحث خارج الدار عن مرفهات ومسليات ، من تلك الأنواع الخفية التى يمكن للإنسان مباشرتها دون أن تصاب حياته الزوجية بصدع ، أو تحطيم ، حتى صادفتك ، وإذا بى أمام ملاك نسيج وحده . أجل لقد كنت شيئاً آخر جديداً لم أصادف مثله من قبل .

وفى ذات يوم عزمت على أن أكون حاسماً فى أمرى . . فجابهتها بالواقع . وكنت صريحاً معها كل الصراحة . . وسألتها الانفصال . . فقد كان ذلك خيراً لى ولها ، ولكنى رأيت

فى عينيها نظرة حزينة ، وأجابتنى فى سكون أنها حامل وأحسست أن إجابتها سكين مزق قلبى ، وتركتها دون أن أحير جواباً . ولم أحاول أن أطلب منها الانفصال بعد ذلك ، ولكنى أحس الآن أننى كنت أحمق وقتذاك . . ولو تكرر الأمر الآن لأصررت على الانفصال . . ولتركتها تذهب هى وطفلها إلى حيث ألقت . . أجل إنى أشعر أنى لم أعد بعد ذلك المثل الذى حاولت أن أكون . . إن تلك الصخور التى نصطدم بها فى طريق الحياة تجعلنا أكثر صلابة وخشونة .

وصمت الرجل وساد سكون عميق قطعته المرأة بقولها :

— وكيف حال ابنك ؟

— ابنى ؟ . . إنه لم يكن ابنى فى يوم ما . . لقد كان ابنها منذ أن خرج إلى هذه الحياة . . لقد علمته كيف يكرهنى . . ولذلك لم أكن أهتم به كثيراً لأنك كنت تملئين جوانحى . . وتشغلين كل قلبى ورأسى .

— ولِمَ لم تحاول الانفصال وقتئذ ؟

— لقد حاولت ذلك مرة أخرى ، ولكنى علمت حينذاك أنك تزوجت ، فتملكنى اليأس ، ولم أجد معنى لذلك الانفصال وخاصة أنها كانت تقوم بواجبها نحو بيتها كما يجب ، وأنها بدأت أيضاً تكف عن تلك المشاحنات التى كانت تثيرها

من أجلك . على أى حال لقد انتهى كل ذلك الآن .. وأصبح كلانا حراً طليقاً ، فهلا يمكننا أن نسعد بتلك البقية الباقية من حياتنا ؟!

ولم تجب المرأة بل نظرت إلى تلك الظلال المتراقصة على أرض الحجرة ، ثم تمتمت :

ـ من ناحيتى أنا .. لقد تعوّدت العيش فى الظلال ، ولا أظننى أستحق أكثر من ذلك .. فقد سرقت رجلا من امرأته ، أو على الأصح سرقت حبه .

ـ لا تكونى حمقاء ، إنها لم تستطع لحظة واحدة أن تملكه .. إنه لم يكن لها فى يوم من الأيام .. ولو لم تسرقيه أنت لسرقه غيرك ، لقد كان زواجنا زلة الأيام .

ـ دائماً نلوم الأيام ونتهم الحياة ونحن أحق باللوم والاتهام ، نعيب زماننا والعيب فينا ، أجل إن العيب فينا والخطأ خطؤنا .. أتذكر ذلك اليوم الذى تزوجت أنا فيه .. لو كان لدى الخلق المتين والشجاعة الكافية التى تمكننى من المضى فى طريق حتى النهاية .. لما أقدمت على ذلك الزواج قط . إنى لم أكن أحبه ، وإذا لم تحب المرأة فخير لها ألا تتزوج . . . وليتنى كنت لا أحبه فقط بل كنت أحب سواه .. لقد كان خير أنواع الرجال ، وكنت أحترمه وأقدره .. بل إنى شعرت

بفجيعة لفقده ، وأحسست بالفزع والوحدة تشملنى بعد موته ولـكنى مع ذلك لم أكن أحبه . وكنا نبدو سعيدين فى الظاهر ولـكنه لم يكن سعيداً قط فى باطنه ، إذ لم أستطع أن أعطيه الشىء الذى يطلبه ، وكان كلانا يعلم ذلك .. ولـكننا لم نتحدث عنه قط . . لقد كان خير ما يصلح له فى نظرى هو أن يكون وسيلة للنسيان ، ولذا كنت أحس أننى جبان وأنى أحاول أن أشرك معى فى حمل أعبائى مخلوقاً لا ذنب له .. كان يجب علىّ أن أحمل حبى فى قلبى وأسير فى طريق بشجاعة لا تخيفنى معها الوحدة ولا يزعجنى أن يدمى الحصا قدمى . . حتى أصل إلى نهاية الطريق . ولـكنى لم أفعل ولم تفعل أنت أيضاً . . فقد كان عليك على الأقل ما دمت لم تستطع أن تـكون زوجاً لزوجتك . . أن تـكون أباً لابنك . ولـكننا أغمضنا أعيننا عن أخطائنا . . ورمينا الزمن بالخطأ الذى فينا .

ثم يخيل إليك بعد ذلك أننا نستطيع الآن أن يمسك أحدنا بيد الآخر ، ونعاود السير فى الطريق سوياً . . لنحصل على بقية نصيبنا من السعادة . . لا . . لا . . لا أظن المسألة من السهولة كما تتخيل ، يجب أن تعود إلى ابنك .. فحرام أن تتركه بلا أم ولا أب .. يجب أن تعوّضه كل ما حرمته من حنانك فيما مضى من الزمن . . . يجب أن تـكون له وحده .

وطأطأ الرجل برأسه وأحس لأول مرة بالحنين إلى ابنه وقال لها هامساً :

ـ وأنتِ ؟

ـ لقد قلت لك إننى تعودت العيش فى الظلال .

ـ أيتها الحالمة . . ألا تظنين أن ضوء الشمس قد يكون خيراً من الظلال ؟ !

ـ إننا لم نفعل ما نستحق من أجله أن نعيش فى الضوء ، وإنى لا أكاد أبصر هذه الظلال حتى أحس فيها عزاء وسلوة .

واقترب منها الرجل ولف ذراعه حولها ، ثم رفع رأسها إليه ، فأبصر فى عينيها لأول مرة تلك اللهفة وذلك الشوق . . واقترب بشفتيه من شفتيها فأحس فيهما حرارة تتأجج ولهيباً يستعر . وسألها هامساً :

ـ أتصرين على أن أتركك ؟

فهمست مؤكدة :

ـ أجل .

ـ على أن أعود إليكِ بين آونة وأخرى . . ؟

ـ أجل ! .

ـ فى ظلمة الليل حيث لا ظلال تتعلقين بأهدابها ، وفى أيام الشتاء حيث الأوراق متساقطة والشمس غائبة ؟

وهمست للمرة الأخيرة :

ــ أجل . . أجل .

وغادر الرجل الحجرة وسمعت وقع قدميه يبتعد فى الطريق . . ثم ساد الصمت وعم السكون . . وهبت نسمة خفيفة من أنفاس الصيف الهادئة . . فحركت أوراق البانسيانس . . فبدأت الظلال تهتز وتتراقص ، وتغدو وتروح .

وبدا وجه المرأة من خلال الظلال ، وقد كست عينيها سحابة من دموع .

يا للمرأة العجيبة . . أتراها حقاً لم ترد أن تنزع الأب من ابنه . . كما نزعت الزوج من زوجته ؟. أم تراها حقاً قد أحست أن الإبن أولى بالرجل منها ، وأنه يجب أن يكون له وحده ؟ . .

أم تراها من هواة الظلال . . وعشاق الذكريات .



امــرأة غيــرى

« وعاودني دائي القديم . . الغيرة القتالة . . التي تجعلني أحلل كل نظرة عابرة وكل كلمة تائهة . . حتى جعلت حياته جحيماً لا يطاق » .

هذه قصة روتها لى امرأة منذ عشرات السنين . . امرأة غيرى . . أكلت الغيرة قلبها فعاشت فى نضال دائم وخوف مستمر .

* * *

حدثتنى المرأة قالت :

ــ دعنى أجول بك خلال الماضى البعيد والأيام النائية . . فأريك كيف كنت وإياها طفلتين عابثتين لاهيتين ، لا نكاد نفترق إلا ساعة تأوى كل منا إلى فراشها .

كنا ابنتى عم ، وكانت دورنا متجاورة . . وشببنا فى الحياة كأختين . . وكان لنا ابن عم آخر يقاربنا فى السن ، وكنا نتقابل جميعاً فى الصيف حيث نتخذ من رمال الشاطىء مرتعاً للهو ، ومن ظهر الموج مطية للعب والمرح .

وأنت تعلم ياسيدى ، أن العائلات التى بينها مثل هذا التقارب والتحاب تحاول دائماً أن تربط بين أبنائها بالزواج وهم ما زالوا فى دور الطفولة ، ولو كان ذلك من باب المزاح .



وهكذا نشأنا ونحن نسمع من آبائنا وأمهاتنا أن ابن عمى سيتزوج من ابنة عمى .

وكنت طفلة لا أكاد أقيم للمسألة وزناً . وكنت لا أحس أن ابن عمى يرى لإحدانا فضلا على الأخرى . . كنا فى نظره سواء مادمنا نشاركه لهوه ولعبه . وعلى ذلك فلم يكن يهمنى

قط أن يقولوا عنه إنه زوجها أو زوجي ... ومرّت السنون . واستمر الأمر كذلك حتى كنا ذات صيف .. صيف حمل فى طياته تبدلا لكل ما بأنفسنا .. صيف نقلنا من عالم إلى عالم ، ومن حياة إلى حياة . . صيف حمل لنا فى حرارته الأنوثة ، وحمل له الفتوة والشباب فالتقى ثلاثتنا ، لا طفلتان وصبى .. بل فتاتان وشاب .

ولست أدرك ما حلّ بنفسى وقتذاك ، فقد اعترانى ما يعترى كل فتاة عند ما تتحول من طفلة إلى امرأة .. من تطور فى الجسد والعقل والقلب والتفكير . ولست أريد أن أسهب فى شرح ذلك التطور ، ولكنى فقط أريد أن أشرح من ناحية معينة .. وهى ما حدث من تبدل فى نظرتى إلى ابن عمى وفى إحساسى نحوه .

ولست أشك أن كل ما حدث بى من تطور قد تركز فى تلك الناحية وأنه قد اتخذها مظهراً واضحاً جليا .

هذا الصبى اللاهى العابث الذى كنت أعدو خلفه لأقذفه بالحصى وأغمره بالمياه ، والذى كان يمسكنى بين ذراعيه أو يجذبنى من شعرى فيلقى بى على الأرض ، ويجلس فوق يديه وركبتيه .. دون أن تتحرك فى جارحة .. هذا الصبى الذى لم أك أرى فيه إلا زميل لعب .. والذى لم أك أعبأ قط

أن يقال عنه أنه زوج ابنة عمى أو زوج أية كائنة من كانت ، أندرى كيف أصبحت أراه ؟ !

عجباً لنا .. كيف تتبدل فى أعيننا المرئيات بين آونة وأخرى ، وتراها فكأننا نبصر أشياء أخرى غير التى تعودنا أن نبصرها .. نراها فنبهت من سناها ونؤخذ من إشراقها وكأننا ما رأيناها من قبل ، وما تبدلت هى ، ولكن تبدلت نفوسنا .. وما أشرقت هى ، ولكن سرى من نفوسنا إليها ضياء غمرها .

ما ذاك الجفاء الذى أصبحت أحسه نحو ابنة عمى والكره الذى يجيش فى صدرى لها ؟

أكان ذلك لأنهم يقولون عنها إنها ستضحى زوجته ؟

هذا القول الذى سمعته من قبل مئات المرات ، فما حرّك فى قلبى ساكناً ، وما أثار من نفسى اهتماما .

هذا القول قد أضحى الآن يعتصر قلبى اعتصاراً .

لقد كنت إذا ما ضم ثلاثتنا مجلس — أنا وهى وهو — لا أكاد أرفع عنه بصرى ، وكان هو لا يكاد يرفع عنها بصره .

كنت أنصت إليه .. وكان هو ينصت إليها .

لقد كنت لا أحس إلا وجوده ، وكان هو لا يحس إلا وجودها .

أما عن إحساسها نحوه فإننى لم أستطع أن أجزم به .

ولم أكن أستطيع أن أتبين من تصرفاتها وتعابير وجهها ، مدى ما تكنه من حب . فقد كانت تتحدث معه كما تتحدث مع سواه .. فهى دائماً لطيفة المعشر حلوة الحديث . ولكنها على أية حال لم تكن قطعاً مدلهة فى هواه ، كما كان مدلهاً فى هواها ، أو كما كنت مدلهة فى هواه .

وأذكر أنها قالت لى ذات ليلة « إنى (أستلطفه) ، ولكن هل يكفى الاستلطاف أن يكون باعثاً على الزواج ، أم لابد من الحب ؟ » . . ولم أجبها ، وإن كانت كل جارحة فى تكاد تصيح « بل لابد من الحب . . الحب الذى يضطرم فى صدرى ويتأجج بين جوانحى » .

ومرت الأيام وأنا أكافح حبى . . أحاول أن أخمده فلا يخمد ، حتى وقعت الواقعة ، وتمت الخطبة ، وتحدد الزواج بعد بضعة أشهر .

أى يأس عصف بنفسى وقتذاك ؟ ! لقد كنت وما زلت آمل ، رغم أنه لم يكن هناك وجه للأمل ، وكنت أعلل نفسى . . وأقول لها من يدرى ؟ قد ترفض هى ، فإنها ليست واثقة من أنها تحبه ، ولكن عندما تمت الخطبة ، ذرت الريح هشيم أملى ، وأحسست بيأس مميت .

آه لو أستطيع الفرار ! إن كل ما حولى موحش كئيب ، ولكن ممن أفر ؟ ونفسى هى العلة ، وقلبى هو الداء .. كم يتمنى الإنسان فى تلك الأوقات أن يفر من نفسه !! .

ولكنى كنت أعلم أنه لا سبيل إلى الفرار ، فهزيمة القلب لا علاج لها إلا الصبر والاحتمال ، ويجب أن ننتظر حتى يبرىء الزمن داءنا .

أجل ، يا سيدى . ما كان أمامى إلا التذرع بالصبر ومحاولة النسيان .

ومرت أيام والخطبة ، وهو يبدو سعيداً هانئاً كأسعد ما يكون إنسان تحققت أحلامه .. وبلغ أمانيه .

أما هى .. فما كانت قط كذلك ، لقد كان بها شىء من الشرود .. وكأن هناك ما يشغل ذهنها ، أو كأنها حائرة تائهة لا تستقر نفسها على قرار .

وفى ذات يوم ذهبت لزيارتها ودلفت إلى حجرتها فوجدتها تبكى ، وفوجئت بوجودى ، وكفكفت دمعها وأنبأتنى أنها متعبة الأعصاب ، ولا شىء أكثر من ذلك .. ولكننى كنت أعلم سبب بكائها .. أنا وحدى الذى أستطيع أن أعلم .. أنها لا تحبه . . .

وأنا يا سيدى .. أنا الذى كنت أتمنى لو أدمى قدمى

شوك القتاد ، وأحرق جسدى جمر الغضى . . حتى أصل إليه لأفتديه بعمرى ، كنت لا أجسر أن أقول إنى أحبه . . .

يا للتناقض العجيب . لقد كانت تذرف دمع عينيها لأنها ستتزوجه . . بينما كنت أبكى بدم قلبى لأنى محرومة منه . . فلا هى تجسر أن تقول إنها لا تحبه ، ولا أنا أجرؤ أن أقول إنى أحبه .

ومضى أسبوع وكنت أجلس ذات صباح فى حديقة الدار عندما لمحته يقبل على وقد بدت على أساريره مسحة هم وأسى وكان فى مشيته بطء وتثاقل كأنه ينوء بعبء أثقل ظهره . وجلس قبالتى وأحسست بضربات قلبى تشتد وبأنفاسى تتلاحق .

وسادت فترة صمت كان هو يحدق خلالها أمامه فى ذهول وشرود ، دون أن ينظر إلىّ ، وأخيراً قال :

— إنى أريد منك معروفاً ان أنساه مدى الحياة .

ولم أتكلم . فقد كانت كل جارحة فى تكاد تنطق « ليت لى فوق الضنى ما أوجعك » .

وأنبأنى بصوت خفيض بائس أن الخطبة قد فسخت لأنها تقول إنها قد تسرعت فى الأمر . وسألنى باعتبارى صديقة لها أن أحاول التأثير عليها وردها إلى وعيها فلا شك أن كل مابها ليس إلا نوبة طيش .

وحاولت أن أخفف لوعته فقلت له إنى سأفعل جهدى .

رحماك ربى . . ! أنا التى أبذل جهدى حتى أردها إليه . أنا التى ماعنيت شيئاً قدر أن أبعدها عنه ولكن ما الفائدة فى أن تبعد هى ، وهو مازال متعلقاً بها ، وما الفائدة فى أن أؤمل فى حبه ، وهو لا يرى منى إلا (واسطة) أقرّبها إليه .

وعلى ذلك فقد حاولت جهدى أن أقرّبه إليها وأن أعيد المياه إلى مجاريها . أو هذا على الأقل ماصممت عليه . ولكنها لم تتح لى الفرصة فلقد سافرت فى اليوم التالى مع أبيها وتركته فى يأسه وفى لوعته . ولم يجد هو سواى ملجأ يلجأ إليه ليبثنى أحزانه وليحدثنى عنها وعن حبه لها . فلقد كنت خير صديقة لها وله .

ومرت الأيام وأنا صابرة محتملة . حتى أحسست أنه قد أخذ يرتاح إلىّ . وأن قرحته قد أخذت تبرأ ، وجرحه يندمل ، وقلّ حديثه عنها رويداً رويداً ، وشعرت أنه قد أقبل علىّ ، وليس أسهل على المرأة التى تحب من أن تميز أن صاحبها بدأ يعنى بها ، من مجرد أشياء تافهة خفية قد لا يستطيع سواها أن يحس بها كتلك النظرات الدافئة التى تحس بها إذا ما التقت الأبصار فجأة ، أو تلك الرقة فى الصوت إذا ما تحدث معها أو نطق باسمها .

ولست أستطيع أن أذكر تفاصيل تلك الفترة التى انتقلت فيها من اليأس المظلم، إلى الأمل البراق .. والتى أحسست فيها أن المعجزة قد حدثت .. والتى وجدتنى فيها قد أصبحت محبوبة لمن بنفسى لهفة على الفناء فيه .. لست أذكر التفاصيل قط .. فلقد كنت فى نشوة .. أو فى حلم .. كنت أكتم أنفاسى حتى أظل فى غفلة من الزمن ، وكنت أغمض عينى ، حتى لا أصحو من حلمى الجميل . وأخيراً سألنى الزواج فوافقت ووافق الأهل ، ولم يطل الأمر حتى كان كل شيء قد أعد .

وعادت ابنة عمى من سفرها لتجدنا على وشك الزواج .

وأقبلت علىّ تهنئنى بحرارة ؛ ولكنى أحسست منها برعدة .. وانتابنى منها خوف شديد .. أجل .. لشدما كنت أخشى أن يعاوده داء حبها ، وأن تنتزعه منى مرة ثانية .. وحاولت جهدى تجنبها والتهرب منها .

وتم الزواج ، وضمنى وإياه بيت واحد .. ترفرف عليه السعادة كأنما هو عش فى الفردوس .. وتمنيت أن أقبع فيه ، لا أزور ولا أزار ، ومرت بى الأيام وأنا سعيدة هانئة .

ولم يك هناك بد — ونحن أهل وأصدقاء — من أن نتزاور وأن يرى بعضنا بعضاً إذ لم يكن هناك معنى للقطيعة ، وإن كنت أنا أتمناها من صميم قلبى حتى أنأى بزوجى عنها .

وكنت أحاول جهدى أن أخفى ما بنفسى عندما نلقاها . ولكن يخيل لى أنى لم أستطع . فقد قال لى زوجى ذات مرة عقب انصرافها من زيارتنا :

ـ لقد كنت جافة معها جداً .

ـ إنها هى التى كانت جافة .

ـ إنها دائماً رقيقة مهذبة .

ـ طبعاً . . « وحسن فى كل عين من تود » .

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ سل نفسك .

وانصرفت إلى حجرتى وعصفت بى نوبة من البكاء .

ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أكف عن اتهامه بأنه ما زال يحن إليها . . وأن الأيام لم تنتزع من قلبه حبه الغابر . وكان يحاول دائماً أن يقنعنى بخطأ ظنى ، تارة باللطف واللين ، وتارة بالسخط والغضب . . ولكن عبثاً كان يحاول . . فقد كان سوس الغيرة ينخر فى قلبى ، وينهش صدرى ، فجعلت من حياته جحيما لا يطاق .

وأخيراً تزوجت هى . وأحسست الاطمئنان يعاودنى . وهدأت غيرتى بعض الهدوء . وظننت أن زواجها سيبعدها عن طريق إلى الأبد ، ولكننى كنت مخطئة .. فقد نشأت بين

زوجها وزوجي صداقة متينة ، وكثر بيننا التزاور عن ذي قبل . . .

وعاودني دائي القديم . . الغيرة القتالة . . التي تجعلني أحلل كل نظرة عابرة وكل كلمة تافهة ، حتى أضحت حياتنا لا تطاق .

وحملت هي . . فزادت نيران الغيرة في قلبي تأججاً . إذ لم أحمل أنا رغم مضي سنتين على زواجي .

وفي يوم وضعها . . كانت تساور نفسي أمنية شريرة ، فلقد بلغت بي الغيرة حداً بت معه أتمنى موتها . . أجل . لقد كان موتها هو الشيء الوحيد الذي يعيد إليّ سعادتي المفقودة وينزع من صدري تلك الغيرة المدمرة التي تجعل من حياتي ظلمة دائمة .

لم يكن يخطر ببالي قط أن أمنيتي الشريرة هذه يمكن أن تصبح حقيقة واقعة ، حتى دخل عليّ زوجي في ذلك اليوم وقد بدا وجهه قاتماً متجهماً وأنبأني في صوت كالأنين أنها ماتت بعد أن وضعت طفلة . .

وكان النبأ مروعاً . . وصدمني صدمة قاسية ، رغم أنني كنت منذ لحظات أعتبره أمنية عزيزة . . واندفعت أبكي في مرارة ، وأفقت من بكائي لأجده هو الآخر يبكي ، ولأجد الشيطان قد عاد يوسوس في صدري ويحاول أن يدفع

فى نفسى الغيرة من بكائه . ولكنى دفعته عنى إذ لم أكن من الجنون بحيث أستسلم للغيرة من امرأة ميتة لم تزل دماؤها ساخنة فى عروقها .

وخفت حدة حزنى بعض الشيء .. وتسللت بدله إلى نفسى تلك الفرحة الخفية الشريرة الناتجة عن شعورى بأنى تخلصت نهائياً من غريمة طالما أقضت مضجعى وحرمتنى الراحة والهدوء .

ومر أسبوع وأسبوعان ، وشهر وشهران ، وسنة وسنتان .

ترى هل استعدت هنائى بعد أن ذهبت غريمتى ؟ ترى هل كففت عن إثارة تلك المشاحنات التى طالما نغصت على زوجى حياته ، بعد أن ذهبت مسبباتها ؟

كلا يا سيدى .. كلا .. لقد تأصل الداء فى نفسى وأصبح مزمناً .

ليتها ما ماتت .. فلقد كنت وقتذاك أناضل امرأة حية ، أما الآن فلا أناضل سوى أشباح وأرواح .

ليتها ما ماتت .. فلقد جعل موتها حبه لها حقيقة واقعة ، بعد أن كان وهماً يساور نفسى .. أجل يا سيدى لقد نكأ موتها قرحه وأدمى جرحه ، فلقد فاجأته ذات مرة وقد أكب على صورة لها يبللها بدمعه . ورأيته مرات يزور قبرها لينثر عليه الزهور والدموع .

ليتها ما ماتت ياسيدى فلقد كنت وإياها سواء أمام الزمن أما الآن فقد كف الزمن عنهـا ، فلم يعد له سلطان عليها ، وستبقى صورتها فى ذهن زوجى وفى قلبه فتية لا تشيخ ناضرة لا تذبل ، مضيئة لا تخبو ولا تنطفىء . أما أنا فلقد سخر منى الزمن ، فى كل يوم له فى شعرى وفى وجهى علامات وآثار .

إن الغيرة تعصف بنفسى ، ولـكن ممن ؟ من امرأة ميتة . ولقد ضاق بى زوجى فأهملنى وأضحى لا يحس وجودى ولولا ذلك الولد الذى أنجبه لهجرنى منذ زمن طويل ، إن عزائى فى ولدى يا سيدى » . .

☆ ☆ ☆

هذه القصة سمعتها من المرأة منذ عشرات السنين ، وكدت أنساها لولا أنى لقيتها منذ بضعة أيام ، محطمة مهدمة ، تعيش فى دارها وحيدة ليس هناك من يؤنس وحشتها ، وسألت عن زوجها فعلمت أن غريمتها قد سلبتها إياه نهائياً .. فلقد لحق بها إلى السماء . وسألت عن ابنها . . عزائها الوحيد . . فعلمت أنه قد تزوج وترك الدار . . أتعلمون من سلبته ؟ إنها الابنة التى تركتها غريمتها ، فقد سرقت الأم الأب ، وسرقت الابنة الابن .

وبقيت المرأة الغيرى ذابلة ذاوية .. كأنها عود يابس .. أو ورق جف « فأودى به الصبا والدبور » . . .

امـــرأة ضـــالة

« لقـد خلقت امرأة ظمـأى ثائرة . . وحرمت تلك القـدرة على التخفي والتستر التي توهب للنساء لكي يسترن شرورهن . . ثم دفع بي الى الحياة . . فلم أستطع أن أكون الا امرأة ضالة »

هرتيني

المرأة الضالة قالت :

ـ أأنا حقاً امرأة ضالة ؟ . . أم امرأة شاذة ؟ لو قسنا ما أكون حسب مايعنيه الشذوذ ، فإنى بلا جدال امرأة شاذة ! فالشذوذ هو أن ينفرد المرء بفعل مالا يتعوده الناس وأن يأتى بما لم يألفوه . . وإنى لكذلك ، فما أتيت أمراً إلا أثار فيهم الدهشة وبعث الاستنكار .

ولكن يخيل إلىّ أننى لو كنت رجلا لما اتهمنى أحد بالضلال أو الشذوذ فكل مافعلته واستنكره الناس لا يزيد عما يبيحه الرجال لأنفسهم دون أن يتهمهم أحد بما اتهمت به .

° ° °

أجل يا سيدى . . إن كل ما سأقصه عليك من أفعالى الشاذة لو نسبته إلى رجل ، لما كان قط رجلا شاذاً . . ولكنى قد خلقت امرأة ، وامرأة ظمأى ثائرة ! وحرمت تلك القدرة على التخفى والتستر التى توهب للنساء لكى يسترن شرورهن ، ثم دفع بى إلى الحياة . . فلم أستطع أن أكون إلا امرأة ضالة !



ما ذنبي يا سيدي وأنا لم أخلق نفسي ؟

ما ذنبي وأنا أحس بظمأ دائم إلى الحب وتعطش دائم إلى الرجال ؟ .. ما ذنبي وأنا لا أجد من نفسي رادعاً يردعني عن إرواء ظمئي وإشباع نهمي ؟ .. ما ذنبي وأنا لم أحس قط بخجل أو حياء .

منذ أن وعيت الحياة ، وأنا كذلك ، مغرقة فى الضلال ممعنة فى الشذوذ . . دعنى أذكر لك كيف كنت صبية فى المدرسة ، وكنت ألعب التنس مع زميلاتى ، وكان مدربنا وقتذاك فتى أعرج لا أظن الله قد خلق أقبح منه ولا أشوه . ولكنه كان الرجل الوحيد الذى أستطيع الاتصال به ، هل تدرى ماذا كنت أفعل ؟ لقد كنت أرجو رئيسة الفريق أن تجعل دورى فى اللعب فى النهاية حتى تنصرف البنات فأخلو إلى الفتى !

وأكثر من ذلك . . تصور أننى كنت - وأنا فتاة - أقفز من سور المدرسة فى فترة العشر الدقائق التى للراحة بين الحصص ، لألقى صاحبى ولأمتع نفسى بلقائه فى هذه البرهة القصيرة .

وفى ذات مرة أقامت المدرسة حفلا خيرياً كبيراً وكان علىّ أن أقوم فيه بدور قارئة الكف ، وكان ذلك سبباً فى رفتى من المدرسة . . أتدرى لِمَ ؟ . . إسمع السبب كما روته إدارة المدرسة وقتذاك .

لقد كان يتحتم على الفتاة التى هى « أنا » أن تجلس فى حجرة مغلقة ويدخل إليها من يريد قراءة كفه ، ويدفع ما يجود به ، وتأخذ هى فى قراءة كفه لمدة لا تزيد على عشرة دقائق ، ثم يدخل غيره وغيره ! . . .

ودخل فتى وسيم ، ومضت عشر دقائق دون أن يخرج .

ربع ساعة ، نصف ساعة ، والفتى قابع فى الغرفة ، ودهشت إحدى المشرفات على الحفلة ، واقتربت من الباب لفتحه حتى ترى ماذا يمكن أن يكون قد حدث بالغرفة ، فإذا بالباب مغلق من الداخل بالمفتاح ، وطرقت الباب طرقاً شديداً ففتح الباب وخرج الفتى .

هذا هو سبب رفتى ياسيدى ، لقد أعجبنى الفتى فاستمتعت به . . هذا هو كل ذنبى . أتراني أستحق الرفت ؟ . . أترى فى على هذا شذوذاً ؟ . . أترى فى فعلتى ضلالا ؟

على أية حال هذه كلها حوادث طفولة تافهة ، دعنا منها ، ولنتجاوزها إلى ماهو أهم ، إلى صميم حياتى كامرأة ناضجة مكتملة .

لا أظننى فى حاجة إلى أن أصف لك نفسى ، فأنت أدرى بى . ولا أظنك مهما حاولت أن تحط من قيمتى من حيث الخلق والطباع إلا منصفاً إياى من حيث الفتنة والجمال ! قل عنى جرثومة شر ! قل عنى حيوانة ! قل ما تشاء ، فإنك لن تستطيع بقولك أن تطفىء بريق الافتتان المنبعث من آلاف الأعين المتطلعة إلىّ ، ولن تستطيع أن تخفت همسات الإعجاب التى تلهج بها القلوب قبل الألسن ! قل ما تشاء فليس قولك بضائر أنوثتى المتدفقة ولا فتنتى الفياضة ! قل ماتشاء فإن قولك سيذهب هباء أمام نضج صدرى واستقامة جسدى وامتلاء

ساق ! ؟ قل ماتشاء ، ولكن لاتقل إنى غير مغرية ولا جذابة فإنى ألمح فى عينيك مبلغ لهفتك علىّ . . ورغبتك فىّ .

أنا جميلة ومغرورة ، وجمالى يضاعف غرورى ، وغرورى يضاعف فى نظرى جمالى ، وهكذا أصبحت أحس أننى أستطيع من فرط ثقتى بنفسى أن أفوز فى أية معركة ، وأن أصرع أى رجل ، وأن أسلب أى حبيب من حبيبته ، وأى زوج من زوجته .

وبهذا الشعور ، وبتلك الأمنية بدأت أخوض غمار الحياة مسلحة بأقوى أسلحة المرأة : الجمال ، والثقة ، والرغبة الكامنة ، لا فى الحصول على الرجل ، بل فى سلبه من امرأة أخرى حتى أحس بلذة التفوق والانتصار ، يعزز كل هذه الأسلحة شعور بالاستهتار وتحلل من الخجل أو حتى خشية العواقب . . بهذا كله بدأت دورى فى الحياة كامرأة .

والتقيت به . . زوجى الأول . . فتى متزوج . . وافر الثراء . واندفعت فى حبه . . إذ لم يكن أسهل عندى من الاندفاع فى الحب . ولم يطل به الأمر حتى سقط صريع هواى ، وسرعان ما اقتنصته من زوجته .

وعارض أهلى فى الزواج ، فضربت بهم عرض الحائط . . وفررت مع زوجى . . أنكرونى وتبرأوا منى . . ماذا يضيرنى

منهم مادمت بين أحضان الرجل الذى أريده وأعشقه ؟

مر شهر ، وشهران ، وثلاثة ، وأنا أنعم بلذة الهوى والانتصار . . حياتى مثالية . . كل ما أطلبه بين أناملى وتحت قدمى ، لو كان معى خاتم سليمان لما استطعت الحصول منه على أكثر مما حصلت عليه ! .

ومع ذلك فقد مرت الأيام بعد ذلك تحمل فى طياتها الضجر وتبعث فى نفسى ـ شيئاً فشيئاً ـ الملل والسآمة . . لقد بدأ الحب يتطاير ويتبدل وخيمت على نفسى سحب الكآبة ، وأصبحت حياتى راكدة آسنة ، وأنا لم اعتد قط الركود ولا السكون . . إنى أريد المغامرة . . أريد حباً جديداً وانتصاراً جديداً ، فقد انطفأت جذوة الحب الأول وخبت بارقة الإنتصار السابق .

ولكننى زوجة . . وسأصبح كذلك أماً ، ويجب أن أكون زوجة صالحة وأماً طيبة ، ويجب أن أقنع بزوجى ، وأكمن فى عقر دارى ، وأن أكبح جماح ذلك الشيطان الذى يحاول أن ينطلق من نفسى .

لا . . لا . . أنا لم أخلق قط لذلك . . هذا الجمال ، وتلك الفتنة ليس مكانهما الدار ، هذه النفس الثائرة الفائرة ، لا يمكن أن يكبح لها جماح ، أو يستقر لها قرار . هذه النفس لا تقيم

وزناً لنواميس الحياة ، أو قوانين الزواج . . هذه النفس التى لا تمل ولا تستحى ولا تخشى أية عاقبة . . لابد لها أن تنطلق لتنهب من اللذات جهدها .

وهكذا محوت من نفسى أى شعور بقيود الزوجية ، واندفعت كعادتى باحثة عن عشاق ومعجبين ، ألهو بهم ويلهون بى .

ولقد كانوا كثيرين ، متزوجين وغير متزوجين ، أنتقل من واحد إلى آخر ، كالنحلة تنطلق من زهرة إلى زهرة ، حتى صادفنى أحدهم واستطاع أن يجذبنى أكثر من أى رجل آخر .

وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين زوجى . . كما توثقت عرى المحبة بينه وبينى ، وفى ذات يوم سافر زوجى إلى ضيعته فخلا لنا الجو .

وأتى إلىّ الفتى صبيحة سفره ثم صحبنى إلى داره وهناك أخذنا نلهو حتى حان وقت الغداء فتناولناه . وأحسست بعد الغداء باسترخاء وخمول ، وحرّكت حرارة الجو ، وقبلات الفتى ، الشيطان الكامن فى نفسى ! .

وضمنا الفراش ، وبدأت أنعم بلذة الإثم . . لذة جارفة قوية . . ودهش الفتى من سرعة استسلامى ، فالنساء فى هذه

الحالات — رغم رغبتهن فى الاستسلام — يظهرن التمنع والتدلل ، ولـكنى لم أكن كذلك !! لقد كنت فى جرأة رغباتى أشبه بالرجل .

وانسقت مع صاحبنا فى دنيا من الهوى والمجون لم تدم أكثر من ثلاثة أشهر حتى بدأت أمله ، أمله كما مللت سواه ، ولـكنه لم يملنى بل كانت رغبته فى ازدياد ، وحاولت صده وإفهامه أننى لا أستطيع أن أحب رجلا أكثر من ثلاثة أشهر . . فلم يقتنع !

ومرت الأيام والفتى يزداد بى جنوناً وأنا أزداد منه نفوراً . . حتى أنبأ زوجى ذات يوم بكل ما بيننا وطلب منه أن يطلقنى حتى يتزوجنى هو . . وثار زوجى ثورة ، سرعان ما عرفت كيف أخمدها ، واسترضيته فرضى ، واستغفرته فغفر ، وبمرور الزمن يئس الفتى من حبى فنسينى كما نسيته .

وأسدل الستار على هذا الحب . . ولـكن لم تـكن لى طاقة على ذلك ، بل اندفعت فى حب جديد . . حب يا سيدى لم يكن كسابقه ، ولم يكن لهواً ولا عبثاً . بل كان حباً حقيقياً ، ملك علىّ مشاعرى . . وعصف بنفسى عصفاً شديداً .

أجل يا سيدى ! لقد عرفت الحب لأول مرة . . الحب الذى يجعلنا نتعلق بشخص معين لا نكاد نبصر سواه .

ولست أدرى أكانت هى الرغبة الشريرة التى تدفعنى إلى أن أسلب الزوجات أزواجهن ، هى نفسها التى دفعتنى إلى ذلك الحب . . أم كان ذلك مجرد قضاء وقدر ، فلقد كان الرجل الذى عشقته زوجاً وكانت زوجته صديقة حميمة لى .

وطبعاً لم أتورع فى حبى . . فأنا — كما قلت لك — امرأة لا تخجل ولا تحس حتى ولو لم يدفعها سوى الرغبة فى اللهو ، فما بالك وقد أضحى يدفعها حب جارف وهوى عنيف .

لقد أحببت زوج صاحبتى ، واندفعت فى حبه دون مواربة ولا استتار . . حتى ما بقى هناك مخلوق لا يعرف أننا عاشقان .

وبدأت أصاب بحالة أشبه بالجنون ، حالة دفعتنى إلى أن أثور على زوجى وأن أبكى أمامه طالبة منه أن يطلقنى ، معترفة له بأنى أحب صاحبى وصاحبه أيضاً ، ثم اندفعت محاولة الانتحار فتناولت زجاجة من الأقراص المنوّمة .

وأخيراً ، يا سيدى ، طلقنى زوجى بعد أن مرت بى أيام عصيبة كادت تودى بى إلى الموت وتفضى بى إلى الجنون .

وطلق صاحبى زوجته ، وتحرر كلانا من كل قيد وأضحت الحياة أمامنا باسمة مزدهرة ، وتزوجنا بعد بضعة أشهر . وشهدت الإسكندرية وشاطىء سيدى بشر منا أروع مناظر

الغرام، وأبدع لوحات الحب . ورأى منا ، الرومانس ، ما لم يره من عاشقين قبلنا . . حتى بتنا مضرب الأمثال .

أنا الآن يا سيدى زوجة لذلك الذى همت به . . وجننت من أجله .. الرجل الذى نزعته من زوجته ونزعنى من زوجى ، لقد أضحى ملك يدى . . لا شريك لى فيه . أنا يا سيدى امرأة سعيدة ، أحس بأن حياتى قد استقرت ، وأننى لم أعد أطمع فى شىء ، ولا أشكو من شىء . . فقط . . شىء واحد أريد أن أهمس به . إن زوجى يضيق علىّ الخناق . . إنه يخشى أن يلدغ من الجحر الذى لدغ منه سابقه . . إنه يريد ألا يفلت زمامى من يده ، فهو لا يفارقنى لحظة واحدة . . فإذا كشفت ساقاى أشار علىّ بأن أسترهما ، وإذا طلبت منه أن أزور ابنى أمرنى بأن يأتى هو إلىّ . . وأنا يا سيدى لم أتعوّد تلك القيود . . إنى لا أستطيع أن أتنفس فى جوّ قد خلا من المعجبين والعشاق . وكم أخشى أن أختنق ، أو أنفجر مرة واحدة فأثور على الرجل الذى أحببته ، وألفظه كما لفظت الذين من قبله .

آه يا سيدى . . كم أخشى من نفسى الضالة المكبوتة المكبوحة ! إلى متى أستطيع امتلاك زمام نفسى ؟؟

ٍ ٍ ٍ

عزيزتى ... المرأة الضالة .

إلى هنا تنتهى اعترافاتك .. فأنت تدرين أن تلك هى نهاية قصتك حتى وقتنا هذا ، ولكن القراء ناقدون فهم لن يرضوا بهذه النهاية .. ولن يقبلوا منى تلك الخاتمة ، فأنا أدرى بهم ، هل تسمحين أن أشارك القدر فأتمم أنا قصتك ؟ وأختم اعترافاتك ؟

أيها القراء . . إليكم البقية منى عن لسان المرأة الضالة .

° ° °

لقد أفلت الزمام يا سيدى .. لقد أصابنى الضيق وتطرق إلىّ الملل . . أريد الانطلاق من ذلك الأسر . . أريد الفرار من ذلك السجن .. لقد تبخر الحب من نفسى وتطاير كالهشيم تذروه الرياح . . إنى لا أصلح قط أن أكون زوجة .

بدأت أعود إلى سابق عهدى ، إلى الانطلاق والحرية ، والعشاق والمعجبين ، ولقد ملّ زوجى فانطلق هو الآخر إلى ملاذه ومتعاته .

مرت الأيام والأشهر والسنون ، أنهك السهر جسدى ، وحطمت الملاذ قواى ، وبدأت أحس بالذبول والنحول ، وتسلل الشيب إلى شعرى ، وتسرّبت التجاعيد إلى بشرتى النضرة الصافية .

هجرنى زوجى ، وتفرّق من حولى المعجبون والعشاق . .

إننى أحس بالفراغ والوحدة والوحشة . . أما من عشاق !! أما من معجبين !! كم أحس بالحنين إليهم واللهفة عليهم .

وفى ذات يوم أنبأتنى صاحبة لى أنها على موعد مع بعض العشاق من الشبان فذهبت معها وقفزت إلى العربة الأنيقة التى وقفت تنتظرنا . . نظرت إلى الفتية الثلاثة الذين جلسوا فى العربة فإذا بأحدهم ، من تظنه يكون ؟؟ من هو ؟؟

لقد كان ابنى ! . .

آه يا سيدى ! أية طعنة سددها القدر فأدمت قلبى ومزقت حشاى ؟ . لقد انطلق ابنى يسوق العربة . . وأحسست من اضطرابه أنه قد عرفنى . . . ولم أتكلم . . . ولم يتكلم . . . ولكن كانت كل جارحة فينا تكاد تنطق !

كم كنت أود لو انشقت الأرض فابتلعتنى فى جوفها ، لأتخلص من هذا المأزق .. واستجاب الله دعائى ، فقد رأيت عجلة القيادة تضطرب فى يده ، ثم أحسست بالعربة تندفع فى جنون . . ولم أحس بعد ذلك شيئاً .

وأفقت فإذا بى فى أحد المستشفيات ، وشعرت بأنى فى النزع الأخير ، وأن لحظاتى فى الحياة معدودات ، وسألت عن ولدى فقيل إنه مات ، متى ينعم الله علىّ بالموت أنا الأخرى ؟

ولقد كان الله كريماً فأنعم عليها بما طلبت .

أيتها المرأة الضالة . . .

لاتحزنى على نفسك ياسيدتى . ولا تحنق علىّ لهذه الخاتمة القاسية ، فما ابتغيت بها إلا إرضاء القراء ، واعذرينى فإن إرضاءهم يحتاج إلى شىء من « التهويل والتهويش » . . ولو أننى أشك كثيراً فى أن القدر سيهديك خاتمة خيراً منها . . والأيام بيننا . . .



امـــرأة ثكلى

زعموا ذات مرة أن طفلا ... غاله الموت فاعترى الوجد أمه
تذرف الدمع ليلها وتعانى ... فى خلال النهار آلام جمه
ورأت فى المنام حلماً عجيباً ... موكبا حافلا : بنات وغلمه
كل طفل فى كفه مصباح ... ساطع الضوء كاشف للظلمه
ورأت طفلها يسير ولكن ... باكي العين فى ظلام ودهمه
فدعته « بنى مالك تمشى ... كاسف البال فى اكتئاب وغمه »
قال « أمي : ماحيلتى وسراجي ... كلما هم أن يضيء بوهجه »
صابه من غزير دمعك صوب ... فانطفا نوره وعاد لظلمه »

نظم طه السباعى باشا

جلست إليها منصتاً مصغياً ، وساد المكان سكون أصبحنا من فرطه نكاد نسمع أنفاسنا تتردد . . ودنوت إليها فلمحت فى عينيها بريقاً وفى وجهها إشراقاً . . بريق إيمان وإشراق طمأنينة . . وشدت من الهواء نفساً طويلا أخرجته بعد برهة فى زفرة هادئة . . ثم أراحت ظهرها على مسند المقعد وشخصت ببصرها فى الفراغ البعيد .. وبدأت تقص علىّ قصتها ، كأنما تستوحيها من ذلك الفراغ .

* * *

يقولون إن « الأذن تعشق قبل العين أحياناً » . . وأزيد على قولهم أن الذهن قد يعشق قبل الأذن وقبل العين ، ولقد كان ذلك هو طريق عشقى له وحبى إياه .

كنت أقرأ له كل ما يكتب . . ويخيل إلىّ أن كلمة « أقرأ » . . لا تعبر تماماً عما أعنيه . . فهى بالنسبة لما أعنيه كلمة سطحية عامة . . ليس بها ذلك العمق أو الحرارة التى



أريد أن أعبر عنها .. إذ لا شك أنه شتان بين أن يقرأ المرء جرائد الصباح .. بما فيها أسعار البورصة ، وتنقلات الوزراء ، وبين ما كنت أفعله عند كان يقع بصرى على إحدى قصصه أو قصائده .

هل تدرى الفارق بين « قزقزة اللب » . وبين إقبال نهم

محروم على مائدة رصت عليها أشهى أنواع الطعام ؟ . هل تدرك الفارق بين جلوسك إلى شخص يقدم لك النصائح والمواعظ ، وبين جلوسك إلى حبيب يذيبك لقاؤه ؟ لقد كان هو الفارق بين ما تعنيه القراءة العادية بالنسبة إلىّ . . وبين ماتعنيه قراءتى لكل مايكتب . . كل مايكتب بلا استثناء !

كنت أتتبع كتابته فى الصحف والمجلات ، وعندما كنت أعثر على شىء من كتبه . . لم أكن أقرأه لأول وهلة ، بل كنت أحتفظ به فترة من الوقت ، فقد كنت أحس فى الاحتفاظ به لذة البخيل تصل إلى يده الدراهم فيأبى صرفها ، رغم أن صرفها قد يعود عليه بلذة كبرى . . أو لذة المحروم يحصل على نوع من الفاكهة الثمينة ، فيتمتع بإبقائها معه برهة قبل أن يأكلها .

ولم أكن أقرؤها بعد ذلك إلا حينما أخلو إلى نفسى ، وأستريح فى جلستى أو فى رقدتى ثم أبدأ بتذوقها . . أو احتسائها ، رشفة رشفة ، وقطرة قطرة . . شاعرة أنها قد حملتنى إلى عالم آخر . . عالم نسجه هو ورفعنى إليه .

كنت أحس فى تلك اللحظات أنى أحيا معه ، بين السطور وبين الكلمات ، دون أن يحس هو بى ، وكنت أشعر أننى ألقاه وإن كان هو لا يلقانى .

وهكذا ياسيدى عشقه ذهنى قبل أن تحس به أية جارحة في نفسى . . ولا شك أن عشقى له وقتذاك كان نوعاً عجيباً من العشق ، نوعاً يقوم كله على التصور والوهم . . وعلى القناعة والزهد . . فقد كنت لا أعرف من يكون ، ولم تكن لدىّ أية فكرة عن شكله أو عمره . . أكان شاباً أم كهلا . . أعزب أم متزوجاً . . قبيحاً أم وسيما . . كل هذا لم أك أدرى عنه شيئاً . فما رأيت له صورة قط ، ومع ذلك فقد كنت أرسم له في ذهنى صورة ، هى خليط من أبطال قصصه ، صورة رجل مجرب عركته التجارب وحنكته الأيام . . قد لاقى فى حياته ما صقله وجعله يشع بذلك الإشعاع من النبوغ فإن كتابته لا شك ترديد لما صادفته نفسه .

وهكذا يبدو لك مدى ما كان فى حبى من تصور ووهم . أما ما كان فيه من قناعة وزهد فقد كان مبعثه أنى أعشق شخصاً لا يحس بى ، ولا أمل لى فيه ، فلا أظننى كنت إلا واحدة من آلاف قرائه والمعجبين بكتابته ، ولا أظن أنه كان هناك أى احتمال للقاء بينى وبينه ، وحتى لو صح هذا الاحتمال ، فما أظننى كنت أتوقع أن أنال شيئاً من اهتمامه أو أحظى بقليل من التفاته .

وفى ذات مرة قرأت له قصة لست أذكر عنوانها

بالضبط ولكنى أذكر أنه قد ختمها بسؤاله القراء عن رأيهم فى مصير بطلة القصة . . وترددت بين أن أكتب له أو لا أكتب .. فدافع يدفعنى إلى الكتابة وإلى أن أنتهز الفرصة لأعبر له عن إعجابى به وإحساسى نحوه .. ودافع يردعنى لأنّ كتابى إليه لن يكون سوى واحداً من مئات أو آلاف . . وقد لا يقرؤه . . أو قد يقرؤه . . ولا يكون نصيبه منه إلا السخرية .

وأخيراً كتبت . . فبلاهة العشاق تتغلب غالباً على حكمتهم . . وهل ترك العشق للعشاق حكمة ؟

كتبت إليه . . لا لشىء إلا لأنى كنت أحس بلذة فى الكتابة ، وكانت رسالتى طويلة إلى الحد الذى لم أشك بعد أن أرسلتها إليه ، أنه لن يقرأها فما أظن لديه من الوقت مايضيعه فى قراءة عبث القراء .

ومر يوم ويومان ، وأسبوع وأسبوعان ، وأخيراً حمل إلىّ البريد خطابا . . يحمل ظرفه خطاً غريباً لا أعرفه ، وفضضته ووقع بصرى على الإمضاء فى نهايته ، فإذا به منه .

وكما تعوّدت أن أفعل بكل كتبه ، طويت الخطاب دون أن أقرأه .

لا أظنك يا سيدى يمكن أن تتصور المتعة التى أحسست

بها عندما وقع بصرى على إمضائه الذى كتبه بخط يده ، لقد كانت أكثر متعة لى فى الحياة هى أن أقرأ شيئاً كتبه ، كتبه للناس عامة . . دون أن يحس أنى واحدة من هؤلاء الناس . . فما بالك وقد كتب إلىّ وحدى ، كتب إلىّ خطاباً لا يعنى به سواى ولا يشاركنى فيه أحد .

وأخيراً أقبل الليل ، وضمنى الفراش ، فأخرجت الخطاب بحرص ، كأنى عابدة تتبتل وتتعبد . . وأخذت أقرؤه ببطء وتأن ، كأنى أتنزه بين السطور ، أو أتنسم عبير الكلمات . . حتى أتيت على آخره ، وهل كان له آخر ؟ أبداً والله ، فقد كنت أصل إلى النهاية لأعود إلى البداية . . ثم أطويه برهة ، لأعيد نشره بعد ثوان ، لقد قرأته ما يقرب من الخمسين مرة ، ولِمَ لا أقول لك إنى قد حفظته عن ظهر قلب ؟

ماذا كان بالخطاب ؟ . لا شىء . . لا شىء أبداً يستدعى ذلك الفرح وتلك المتعة . . ولكنك تعلم أن العشاق مجانين وأنهم يجعلون من « حبة » الحبيب « قبة » مليئة بأكداس النعيم . . لقد كان الخطاب لا يحوى أكثر من بضع كلمات شكر رقيقة متواضعة ، وبضع كلمات إعجاب بردّى الذى كتبته له ، وبضع كلمات — على سبيل المجاملة — بأنه يسره أن أكتب إليه دائماً .

وكأية عاشقة حمقاء . . بلهاء . . كتبت إليه مرة أخرى . .
كتبت إليه أسأله رأيه فى بضعة أبيات من الشعر ، كنت قد كتبتها وتجرأت على نشرها فى إحدى المجلات ، وما زالت ذاكرتى تعى منها بعضها ، وهى :

لو تجـد لى بوصـال بعـد ما غبت سنينا
للهونا فى نسـيم الليـل قرب الياسمينـا
آه لو تذكـر ما مــر لرجعت الأنينا
كم هفا القلب إليك وإن كنت ضنينا

وحمل إلىّ البريد ردّه للمرة الثانية ، ينبئنى فيه بإعجابه بشعرى ، ويصفه بالرقة . . ولست أعلم أكان إعجابه إعجاباً حقاً ، أم أنه كان مجرد مجاملة ؟! على أية حال . . لم يكن أسهل علىّ وقتذاك من أن أقنع نفسى أنه إعجاب حقيق .

وكتبت إليه مرة أخرى أسأله أن يتفضل علىّ بصورة .

وأقول الحق . . إنى ترددت كثيراً قبل أن أطلبها فقد كنت أخشى أن تطيح صورته الحقيقية . . بالصورة التى رسمتها له فى ذهنى ، وأن يصرع قبح الحقيقة جمال الخيال . . أجل . . كنت أخشى أن تكشف الصورة خدعة أوهامى وأحلامى .

ومع ذلك فقد طلبتها منه ، ولم يرفض هو فقد حمل البريد إلىّ خطابه الثالث وبه بعض الثقل ، وأحسست باضطراب

شديد كأنى على وشك أن ألقاه ولم أفتح الخطاب ، بل أخفيته كأنى سارقة . . أو كما يخفى المحتاج نقوداً عثر عليها فى قارعة الطريق ، خشية أن يبصره أحد المارة فينتزعها منه .

واستطعت أن أصبر حتى ضمنى المضجع . . وفتحت الخطاب ، وأخرجت الصورة .

وأصابتنى إذ ذاك دهشة ، وأخذت أسائل نفسى : أحقاً هذا هو ؟ . لا أظن ! لا يمكن !

كانت الصورة لفتىً تشيع فى وجهه ضحكة مرحة ، تبدد من حولها هموم الحياة . . وجه ليس به أثر لتجاريب أو حنكة ، بل كل مافيه إشراق وضياء وأمل مزدهر .

ورأيت الحقيقة قد كشفت خدعة الخيال ، ولكنها كشفتها إلى ما هو خير وأفضل . . وأدركت أن الأوهام والأحلام رغم قدرتها على التحسين ، لم تستطع أن تسبق فى هذه المرة . . الحقيقة الواقعة .

وتراسلنا بعد ذلك بضع مرات ، حتى كتب إلىّ ذات مرة يقول «كيف أنت ؟ . أخشى أن أسألك صورتك ، فتبدد تلك الصورة التى أرسمها لك فى رأسى ، فهل أجرؤ على سؤالك إياها ؟ أم أكتفى بصورة الأوهام . . خبرينى ما رأيك ؟ ! »

ولقد قضيت طيلة يومى ، أتأمل كل مالدى من صور ،

وأسائل نفسى : ترى أية صورة يرسمها لى فى ذهنه ؟ . هل تخذلني صورتي لو أرسلتها له .. لقد كنت حائرة فى تقدير نصيبى من الجمال . ورغم أنني كنت أحس أنني جميلة . فقد كنت أعلم أيضاً أنه مامن امرأة لا تحس أنها جميلة ، وما من إنسان يستطيع أن يرى قبحه .

مرت الأيام ـ وأنا ـ مترددة يتغلب علىّ الجبن ، حتى رأيت الظروف العجيبة تضع حداً لحيرتى ، بطريقة لم أكن أنتظرها قط .

أتدرى كيف ؟ . لقد لقيته وجهاً لوجه ! !

ولم يصعب علىّ أن أدرك — بغريزة المرأة — أن مرآى لم يخذله ، على النقيض ، لقد أحسست أنى قد صرعت صورة أوهامه ، وإنى قد هزمتها شر هزيمة .

لا تسألنى كيف عرفت ذلك ، فليس أسهل على المرأة ، وخصوصاً العاشقة ، من أن تدرك من مجرد نظرة تسرى بين الأعين . . أنها ذات قيمة . . وذات موضوع . . لقد أقبل علىّ فى سرور ولهفة . . عندما عرف أننى أنا ، ولم أكن بالطبع أقل منه شوقاً ولا لهفة . . ولم نكن قط فى حاجة إلى تلك الشكليات التى تحدث عادة بين اثنين يلتقيان لأول مرة ، فقد كنا نحس أن بيننا قديم معرفة وسابق لقاء .

وتحدثنا كثيراً ، وافترقنا .. وفي نشوة السكارى ، ولم أكن أصدق أنني لقيته وتحدثت إليه ، وأنه خصني وحدي دون سائر الفتيات بإقباله واهتمامه . وكيف أصدق ، وأنا ما كنت أجرؤ أن أجعل من هذا مجرد أمنية ؟

وتكرر اللقاء بيننا بعد ذلك . . . وفي كل مرة كنت ألقاه ، كنت أحس أن حبه يزداد نفاذاً إلى نفسي ، أو على الأصح ، كنت أحس أن حبه قد تطور فأضحى شيئاً جديداً .

لقد كنت أحبه بذهني . . فأصبحت أحبه بقلبي وبكل جارحة في نفسي . . لقد كنت أعشق كتابته فأصبحت أعشق كل شيء فيه .

لقد كان ياسيدي يستحق الحب !! . . كنت أجلس إليه فأجده مخلوقاً لطيفاً رقيقاً جم التواضع ، وهو الذي لو ملأه الغرور لغفرت له غروره . . فقد كان خير عباد الله كلهم . . أهذا هو الذي أظنه ذا تجارب وحنكة ؟ . أهذا هو الذي كتب مئات القصص عن الحب والعشاق ، والذي كان يحلل نفوسهم تحليلا لا يستطيعه إلا رجل خبر أمور الغرام وشؤون الهوى ؟ ؟ ! .

لقد كان يجلس إليّ وكأنه تلميذ عاشق ، وكان لا يسعده قدر أن أعطيه يدي ليأخذها برفق بين يديه ، ويظل يحدثني

حديثه الطلي الضاحك الذي يغمرني في نشوة ممتعة .

لا أطيل عليك الحديث يا سيدي . . لقد ظللنا نمرح في مرعى الهوى ، حتى سألني مطلباً كنت أتوق إليه وأحلم به ، لقد سألني الزواج .

وتمت الخطبة ، ومرت أيام الخطبة حلوة لذيذة .

وأخيراً تحقق الحلم الأكبر . . فتم الزواج .

لا أظن هناك سعادة يا سيدي يمكن أن تعادل سعادة امرأة تجد الرجل الذي أفنت نفسها في حبه ، أضحى ملكها ، ملكها وحدها ، لا شريك لها فيه . . هي التي تطعمه ، هي التي تعد له ثيابه وهي التي تهيء له راحته ، وهي وحدها التي ترتمي في أحضانه فيدللها وتدلله . . كأنها طفلته وكأنه طفلها . . أي إحساس أجمل من أن تحس المرأة أنها قد أضحت تملك الرجل الذي تحبه وأنه قد أضحى يملكها ؟ !

لقد كنت أجلس على أريكة أمامه . . ويداى منهمكتان في عمل « صديري » له من الصوف ، وعيناى تتأملانه وقد جلس على مكتبه وانهمك في الكتابة . فيشرد بي الذهن . وأتصور الأيام التي كنت لا أجد فيها متعة أكثر من التسلل بقصصه وقصائده وكتبه إلى مضجعي فأخلو بها إلى نفسي . . وأظل أرتشف منها وأحتسي . . كان هو وقتذاك حلماً في رأسي . .

وخيالا يساور نفسى . . . وكان بالنسبة إلىّ لا يزيد عن أبطال الخرافات . . . كيف مرّ الزمن فأضحى زوجى ؟ !

هل كان يخطر لى على بال وقتذاك أنه سيأتى يوم أجلس أمامه هكذا لأرمقه وهو يكتب .

وتتملكنى إذ ذاك نشوة ، وتغمرنى فرحة ، فأجد نفسى قد قمت من مكانى . . يدفعنى دافع لا أستطيع مقاومته . . فأقترب منه وهو منهمك فى الكتابة وأتحسس شعره برفق . . فيرفع إلىّ رأسه مبتسماً وتلتقى شفتانا فى قبلة رقيقة . . ثم أعود إلى مكانى قريرة العين .

والواقع ياسيدى أننى لم أكن مبالغة فى إحساسى بالسعادة معه . . فإنه لم يخذلنى قط . . فأنت تعلم دائماً أن الإنسان يخذله الواقع . . وإنه دائماً يصوّر لنفسه أحلاماً براقة . فلا يكاد يحصل عليها حتى تضحى حقائق معتمة ، ولكن لم يكن كذلك قط . . أتذكر كيف رأيت صورته فوجدتها خيراً مائة مرة مما كنت أتصور ؟ . . لقد كان الحال معه كذلك دائماً . . أجل ! فكما رأيت صورته خيراً مما كنت أتخيله ، رأيت شكله خيراً من صورته ، فلما أضحينا عاشقة وعاشقاً رأيت قلبه أجمل من شكله ، وباطنه أحسن من ظاهره . فلما تزوجنا ـ والزواج يكشف الإنسان على حقيقته الخفية الكامنة ـ وجدته إنساناً مثالياً ،

ووجدت حقيقته المجردة ، لا عيب فيها ولا هنة .

ماذا تريد الزوجة أكثر من رجل ، محب ، رقيق ، عطوف هادىء الطبع ، قليل الغضب ، كثير المرح ، لا يحمل هماً ، ولا يجعلها تحمل هي هماً ، يعطيها كل حقها ، ولا يطلب منها إلا ما تعطى ، لا يعرف الخمر ولا يعرف الميسر ؟ .

لقد كان هو ذلك الرجل ، هل كنت مبالغة فى إحساسى بذلك القدر من السعادة بين أحضانه ؟

وكنا نهيء فى دارنا الصغيرة كل ما نستطيع من متعة ، فلم نكن فى حاجة إلى زوّار لتسليتنا . وكان كل منا يشارك الآخر فى عمله . . فكان لا يرسل القصة أو القصيدة للنشر إلا إذا قرأها لى وأخذ رأيى فيها . . وكان كثيراً ما يدخل عليها تعديلات كنت أقترحها عليه . وكنا دائماً نشترك فى تنسيق الحديقة ، كما كنا نشترك فى كل شيء آخر .

وكانت خير وسيلة لتسليتنا هى جهاز صغير لتسجيل الصوت وملء الأسطوانات . وكان قد أهدى له من أحد أصدقائه عند زواجنا . فكنا نجد متعة كبرى فى تسجيل قصائده عليها ، وكنت أنا التى أقوم بتسجيلها عليه إذ كان يرى أن صوتى جميل فى الإلقاء ، وكنت أجد لذة فى ذلك ، وأذكر أن أول أسطوانة ملأتها له هى أول قصيدة نظمها عند ما كان

طالباً بالمدارس الثانوية ولقد كان مطلعها :

يا أيها الرامى المسـدد من عيونك بالشهب
تدمى قـلوب العاشقين بلا نبال أو لهب

وكان أكثر ما يطربه فى أوقات فراغه هو أن يستعيد سماع تلك الأسطوانات .

ومرت بى الأيام هادئة ناعمة ... وزادت سعادتنا عندما أحسست ببوادر حمل .

ووضعت طفلا شديد الشبه بأبيه ، وكانت ولادته عسيرة بعض الشىء ، ولكن الله سلم العاقبة .

أنت أب ياسيدى ، وتعرف أية بهجة يخلعها الأطفال على البيوت . إنى ما كنت أعرف حكمة قوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » حتى رزقنا بذلك الطفل .

لقد كنت أسائل نفسى وأنا أضمه إلى صدرى كيف كنت أعتبر الحياة حياة قبل أن أنجبه .

ولست أكتمك القول أنه خفف بعض الشىء من اهتمامى بأبيه ، ولست أعنى بكلمة اهتمامى « حبى » فإن حبى لأبيه لم يكن يستطيع أن ينال منه مخلوق ، بل أقصد بالاهتمام تلك اللهفة وذلك التدليل الذى كنت أغرقه به ، وقد يكون هو أحس بذلك ولكنه لم يتضايق ، فقد كان ذلك هو الحال بالنسبة إليه أيضاً

إذ كان الطفل يشغل منه كل فراغه ، وكان لا يمل من قضاء الساعات الطويلة فى تدليله وتسليته .

وكان أكثر ما يزعجنا هو تلك الأمراض الطارئة التى تطرأ على الأطفال كالإسهال والتسنين .

ومرت الأشهر ، ولا تسل عن فرحتنا عندما بدأ يحبو ثم يسير ثم يتلفظ بعض الألفاظ : « كـ .. بابا ، وماما » .. لقد أخذنا من فرط فرحتنا نسجل له الأسطوانات التى لا تسمع منها أكثر من كلمات متفرقة لا معنى لها ، ولكنها كانت تطربنا أكثر من أعذب الألحان وأجمل الموسيقى .

وقررنا أن نملأ له أسطوانة كل شهر ، ونحتفظ بها لكى نهديها إليه عندما يصبح رجلا ، لأنها ستكون أجمل ذكرى .

ومر بنا عام وثان وثالث ، وشب الطفل محوطاً بكل وسائل العناية والرعاية ، ولم يكن أحب إلى أبيه من أن يأخذه بين أحضانه ، ويقص عليه القصص .

وكم كان يضحكنى أن أرى أباه .. الكاتب العبقرى الذى طالما هز المشاعر بقصصه الرائعة وأشعاره الرقيقة وقد رقد بجوار الطفل يقص عليه سخافات تضحك الثكلى ؛ والصغير مصغ إليه بكل جوارحه يستعيده تارة ، ويصحح له الوقائع تارة أخرى .

وكم مرت ليالى الشتاء الحلوة وقد جلس ثلاثتنا أمام المدفأة وأخذت أشوى لهما « أبو فروة » ، وهما يزدردانه الواحدة بعد الأخرى وقد انهمك الأب فى قصة الفار المهمندار والفارة النقارة.

ويصل إلى سمعى صوت الأب مسترسلا فى حكايته : « ثم أسقطت الفأرة ذيلها فى صفيحة العسل » .

ويقاطعه صوت الصغير قائلا فى اهتمام : « صفيحة السمن يا بابا » .

ويراجع الأب نفسه ويقول معتذراً : أجل . . أجل . . وضعت ذيلها فى صفيحة السمن .

وتنقضى الساعات الطوال ، الأب يحكى والابن يستمع . لا هذا يكل من الكلام ، ولا ذاك يمل من السمع . . حتى يروح الصغير فى غفوة فيحمله فى رفق إلى فراشه .

ومرّ عامان آخران وذهب الطفل إلى المدرسة ، وكنا ما زلنا على عهدنا فى ملء الأسطوانات ، وأضحى يسجل فيها الأناشيد التى يلقنونها إياه فى روضة الأطفال كقطتى الصغيرة.

وحاول أبوه أن يلقنه أشعاره لكى يسجلها له . . وأخذ يضع له أراجيز بسيطة حتى يستطيع قراءتها وإلقاءها .

* * *

وصمتت محدثتى لحظة . ومدت يدها إلى كوب من الماء

تجرعت منه نصفه . . وبدا عليها كأن الحديث قد أجهدها واعتدلت فى مقعدها لتغير جلستها . . ثم انطلقت تتمم قصتها قائلة :

وفى ذات ليلة لا تزال صورتها منقوشة فى مخيلتى ، ولا أظنها ستمحى منها أبد الدهر ، ولقد كانت الليلة الأخيرة فى شهر رمضان والبيت يفيض بالمرح والسعادة .

ولست أظنك ياسيدى إلا مدركا فرحة الأطفال وابتهاجهم بليلة رمضان الأخيرة ، ليلة العيد السعيد ، وهم يودعون مصابيحهم الملونة ، وأناشيدهم الطربة المرحة ، ويعدون ثيابهم الجديدة .

فى تلك الليلة صعد ابننا إلى الدار بعد أن انتهى من لهوه بالفوانيس مع بعض أطفال الجيران ، ثم بدأ يخرج حلته الجديدة ليعلقها على مقعد بجوار فراشه ووضع الحذاء الجديد أمام المقعد ووضع بداخله جوربه الجديد .

وأقبل أبوه وشاهد المنظر فاستغرق فى الضحك ونظر إلىّ قائلا :

— تماماً كما كنت أفعل فى مثل تلك الليلة . . لا فارق بين الابن والأب .

وانتهى الصغير من تجهيز ملابسه ، فحمله أبوه بين يديه

وأوسعه تقبيلا وهو يحاول التملص من بين يديه ، وقال الأب مغرياً إياه :

– ما رأيك فى تسجيل اسطوانة ؟

– هايله .

ولم يكن أحب إلى الصبى من تسجيل الاسطوانات . . وأقبل الاثنان يعدان الجهاز وقال الصغير لأبيه :

– ماذا أقول ؟

– سأنظم لك أنشودة تناسب الليلة . . وسأسطرها لك حتى تسجلها وحتى تتذكر بها ليلة العيد .

وأخذ الأب يكتب ويشطب وبعد دقائق هز رأسه وقال :

– خمسة أبيات لا بأس بها .

وقرأها له بضع مرات ، ثم أعد الجهاز وبدأ الصغير يلقى القطعة بصوته الرقيق قائلا :

ليلة العيد فى سناك وقفنا موكباً حافلا : بنات وغلمه
ننشد الشعر والقلوب تغنى فى حنايا الصدور أفراح جمه
كل طفل فى كفه مصباح ساطع الضوء كاشف للظلمه

وهنا توقف الجهاز . . فقد أصابه عطل . . ولم تكن أول مرة يحدث فيها هذا العطل ، فقد كان الأب متعوداً إياه وأقبل على الجهاز يحاول إصلاحه ، ومضت فترة وهو مكب

عليه ، وأخيراً رفع رأسه وقال بشيء من الملل :

ـ لا بأس .. تؤجل تكملة الأنشودة إلى غد . فلا شك أنى أستطيع إصلاح الخلل فى النهار .

ـ إذاً .. تحكى لى حكاية .

وهزّ الأب رأسه بالموافقة ، وجلس الاثنان على إحدى الأرائك وأخذ يقص عليه إحدى قصصه حتى أسلمه إلى النوم .

° ° °

وصمتت محدثتى مرة أخرى ، ورأيت وجهها الذى كان مشرقاً بالإيمان قد علته فجأة سحابة حزن ألمة معتمة ، ولمحت غشاوة من الدمع قد حجبت بريق عينيها .. وبدت كأن فى جوفها صراعاً يشتد أواره ، ثم انطلقت منها زفرة حارة .. حملت معها شيئاً من لهيب صدرها ، ثم استرخت السيدة على مقعدها ، وبدت عليها بوادر الراحة ، وخيل إلىّ كأنها انتصرت على أحزانها ، فقد انقشعت سحابة الحزن وانجلت غشاوة الدمع ، وعاد إلى وجهها إشراق الإيمان وإلى عينيها بريق الطمأنينة ، ثم قالت بصوت هادىء :

ـ الحمد لله ، الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

وصمتت لحظة تستجمع فيها شوارد أفكارها .. ثم أردفت تقول :

ـ لقد نام ابننا العزيز .. على أن يستيقظ فى الصباح لـكى يرتدى ملابسه التى جهزها بجوار فراشه .. وليتم ملء الاسطوانة بعد أن يصلح أبوه ما بالجهاز من عطل .. ومع ذلك فما ارتدى ملابسه، وما أتم ملء الاسطوانة قط .

إنه استيقظ قبيل الفجر ، وظلام الليل لم ينقشع بعد ، استيقظ وأيقظ معه كل من فى الدار .. فقد أخذ يصيح صياحاً يفتت الأكباد، إذ كان يحس ألماً فى معدته، وحاولت تهدئته بوضع «قربة» من الماء الساخن .. ولـكن ألمه لم يهدأ . وخرج أبوه وهو يكاد يجن ، يطرق باب الأطباء واحداً واحداً حتى أتى بعد ساعة ومعه أحدهم .

وكشف الطبيب صدر الصبى ، وتسمعه بساعته ثم نقر على صدره وعلى ظهره عدة نقرات .. ثم تحسس بأصابعه بطنه ، وبدت عليه علامات الحيرة ، وكان الصغير قد هدأ بعض الشىء ، ولـكن لم تمض برهة حتى عاوده الألم ، وعاود الصياح ، وكتب الطبيب لنا بضعة عقاقير ثم حاول طمأنتنا وانصرف .

وفى الضحى استدعينا طبيباً آخراً ، وكان الصبى قد عاوده الهدوء ، وإن كانت أنفاسه قد أخذت تتلاحق ، وبدأ يلهث كأنه يجرى فى سباق .. وفحصه الطبيب ، وعند ما انتهى

من الفحص ، أنبأنا أنها مبادىء التهاب رئوى .

وصدمنى قوله صدمة شديدة . . فقد كنت لا أخشى شيئاً كالالتهاب الرئوى . وكنت أفزع لمجرد أن أسمعه يسعل سعالا خفيفاً ، أو يصاب بزكام ، فكيف بى وأنا أراه يصاب بالالتهاب مرة واحدة .

وعصفت بى نوبة من البكاء . . وحاول زوجى تهدئتى ، رغم أنه كان فى حاجة إلى من يهدئه .

وبدأنا العلاج ، بالسيبازول ، والانتفلوجستين .

ومر يوم ويومان ، وثلاثة ، وانقضت المدة التى كان يجب أن يبل فيها الطفل ، ومع ذلك فإنه لم يبل ، واستمرت الحرارة مرتفعة كما هى . واحتار الطبيب ، وليس أشد على أهل المريض ، من أن يروا الطبيب الذى وضعوا فيه ثقتهم ، قد انتابته حيرة وأصابه قلق .

واستدعينا ثلاثة أطباء آخرين لعمل « كنسلتو » .

وأعادوا فحص الطفل ، وتشاوروا فيما بينهم ، وأخيراً استقر رأيهم على أن الطفل قد أصيب بصديد فى الرئة .

وتلقيت الطعنة الثانية التى وجهها إلىّ القدر . . وأحسست أنى أترنح أمامها ، وأن قدمى لا تكادان تحملانى ، وارتميت على الفراش مرتجفة باكية .

لست أدرى كيف كنت أعيش وقتذاك . . لقد كنت أشبه بجندى جريح فى معركة غلب فيها على أمره . . وأصيب من هول المعركة بذهول جعله لا يدرك شيئاً مما حوله ، ولا يعرف إلا أنه يسير . . إلى أين . . ؟ إلى متى ؟

لا يدرى !

وبدأوا يجرون للصبي العزيز عمليات البذل . . ويدخلون فى ظهره إبرة طويلة تنفذ إلى الرئة لكى يمتصوا بها الصديد .

ولم يجد البذل نفعاً . . وقالوا لنا ، جربوا « البنسلين » ، وبدأنا نجرب البنسلين . . وأعطى الصغير ما يقرب من مائتى حقنة ، ومرت بنا ليال كنا لا نذوق فيها النوم .

كل ذلك وأبوه هادىء ساكن . . يملأ الإيمان قلبه وتفيض السكينة بين جوانحه .

تصوّر يا سيدى . . أنه هو الذى كان يمسك بالصبي لكى يضع الطبيب الإبرة فى رئته . . لست أدرى أغلظة منه ، أم شجاعة وإيمان . وكان يكره منى ذلك الجزع . ولكن ماحيلتى فى نفسى وقد طارت شعاعاً . . أية شجاعة يطلبونها منى وأنا أرى ولدى يترنح بين براثن الموت ؟

وأخيراً قضى الأمر . . فلا نفع البذل ولا البنسلين ، ولا مهارة الأطباء ، لقد نفذ فيه قضاء الله ، ولا راد لقضائه ،

لا تسلني كيف ؟. فقد كان يوماً أسود ، كنت فيه فى حالة غيبوبة وذهول .

ومرت بى الأيام بعد ذلك وأنا محطمة مهدمة . . لا أكلم أحداً ، ولا أرى أحداً .. لا أفعل شيئاً سوى النحيب والبكاء ، حتى زوجى الحبيب لم يستطع أن يهىء لى العزاء والسلوان ، لقد كنت أريد ابنى . . ابنى الذى انتزعوه منى ، وأرقدوه وحيداً ، فى ظلمة قبر موحش مقفر .

وفى ذات يوم خرج زوجى ، وجلست فى الدار وحيدة ، وأحاطتنى الهموم والخواطر واندفعت فى النحيب .

وفجأة خطر لى خاطر عجيب .. خيل إلىّ أنه قد يبعث إلى نفسى شىء من العزاء ، وهو أن أدير بعض الاسطوانات التى ملأها ولدى .. فلا شك أن صوته سيعوضنى بعض ما أحسه من فقده .

وترددت بعض الشىء . فقد تملكنى من الخاطر خوف شديد . . ولكنى قمت فى النهاية ، وتوجهت إلى صندوق الاسطوانات ، فكان أول ماصادفنى هى الاسطوانة التى لم يتم ملأها ، والتى سجلت آخر ما تحدث به ولدى العزيز .

وأمسكت الاسطوانة بيد مرتجفة ، وأنا لا أكاد أتمالك نفسى . . ووضعتها على القرص .

ووصل إلى سمعي صوته الرقيق الحلو يكرر الأنشودة وقد ملأه المرح والأمل :

ليلة العيـــد فى سناك وقفنـا

موكباً حاملا : بنات وغلمه

ننشـــد الشعر والقلوب تغنى

فى حنايا الصدور أفراح جمه

كل طفل فى كفه مصباح

ساطع الضوء كاشف للظلمـــه

ونهضت من مكانى لأرفع الاسطوانة . . وقد انهمر من عينى الدمع ، ولكنى تسمرت فى مكانى . . وأصابتنى الدهشة .

فقد رأيت أن الصوت لم يكن قد انتهى بعد من أنشودته . وأنه مازال يتم الأنشودة ، رغم أنه لم يكن قد ملأ منها إلا الثلاثة الأبيات السابقة .

وأصغيت إلى الصوت وقد تملكنى رعب شديد ، ووصل إلىّ صوت الصبي يتمم الأنشودة فى صوت ملؤه الألم :

آه ! أمى ! ماحياتى وسراجى

كل ماهمّ أن يضىء بهمه

صابه من غزير دمعك صوب

فانطفا نوره وعاد لظلمـــه

ولم أشعر بعد ذلك بما حدث .

فقد سقطت مغشياً عليّ . . ولم أفق إلا وزوجي يحملني بين ذراعيه ليضعني على الفراش . . وأخذ يربت عليّ بعطف وحنان .

وهمست في أذنه بما حدث . . فتملكته دهشة شديدة . وقام إلى الإسطوانة ، ولكنه لم يجدها إلا حطاما . . فقد سقطت عليها عندما أصابني الإغماء ، فتهشمت .

ومنذ ذلك اليوم يا سيدى . . وأنا لا أبكي قط . . لقد ملأ الإيمان قلبي وأفعمت الطمأنينة جوانحي .

وصمتت السيدة ولمحت في عينيها غشاوة دمع مالبثت حتى انجلت . . وعاد إلى السيدة إشراق وجهها وبريق عينيها .



امرأة شريفة

أنت امرأة شريفة .. بل أشرف امرأة صادفتها ، ولو قلت عنك غير ذلك لكنت أحمق لا أعرف مقاييس الشرف ! !

سيدى العزيز

ترى لو صادفت قصتى هوى فى نفسك، فأقدمت على نشرها لقرائك .. فأى عنوان تختاره لها .. وأى كلمات رنانة تكلل بها هامتها حتى تغرى قراءك بقراءتها.

« إمرأة ساقطة ؟ » ... « قصة بغى ؟ » .. « بائعة الجسد ؟ » ...

أى خلعة من هذه الخلع الزاهية تنوى خلعها علىّ .. دعنى أتنق لك، فإنى أعلم مبلغ ولعك بالعناوين البراقة، وماذا يضيرك وأنت جالس فى عقر دارك تحرك القلم على وريقات بكلمات قد لا يكون لها أقل أثر فى نفسك فتنال بها أجراً وإعجاباً، وماذا يضيرنى من أن تطلق علىّ أسوأ الألفاظ وتنعتنى بأقبح النعوت، هل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها ؟! لا .. لا .. يا سيدى .. سمنى بما شئت، فما عاد فى جسدى بقية حس .. أو أثر شعور.



أنا امرأة ساقطة . . عاهرة . . بغى . . ! كل ما يخطر على بالك من ألفاظ السوء . . اجعله نعتاً لى . . فإننى فعلا كذلك .

السوء ! ! ما معنى السوء ؟ وما معنى أن يكون المرء سيئاً ؟

أنا أفهم أن السوء هو أن نلحق الضرر بغيرنا عامدين . . أو نتمنى لهم الشقاء والتعس ، ونكره لهم الخير ونحسدهم على

النعمة . . أنا أفهم أن معنى أن يكون المرء سيئاً . . هو أن يرتكب السيئة ، والسيئة هي كل ما ينتج شراً .

أليس كذلك يا سيدى ، أم أنا مخطئة ؟

وأنا امرأة سوء ما فى ذلك شك . . فقد أجمع الكل على أنى كذلك ، وأكون حمقاء مجنونة لو حاولت إنكاره ، ولكنى مع ذلك عند ما أخلو إلى نفسى فى بعض الأحيان فأحاول أن ألتفت حولى لأرى مبلغ ما بى من سوء أو أحاول نبش الماضى ، لأنقب عما فعلت من سيئات . . لا ألبث أن أصاب بحيرة ، وأقول لنفسى : إما أننى عمياء بلهاء لا أستطيع أن أبصر بنفسى أو أدرك ما فعلت ، وإما أننى لست امرأة سوء . . وما كان فى كل ما أتيته أمر إد ولا فعل نكر .

إننى لا أتذكر قط أنى حاولت أن ألحق ضرراً بأحد ، عامدة أو غير عامدة ، إنى ما تمنيت لأحد شراً ولا كرهت للناس خيراً ولا حسدتهم على نعمة . . إننى لم أرتكب ما يصح أن يسمى سيئة بمعناها الحقيقى . . فما أنتج فعلى شراً قط ، وحتى هذا الفعل الذى ارتكبته والذى يسمونه سيئاً . . قد ارتكبته لأنى لم أكن أستطيع إلا أن أرتكبه ، فقد كان السبيل الوحيد أمامى للعيش ، فسلكته .

هل يهمك أن تعرف كيف سلكته أول مرة ؟ هل تظن

هذا من مستلزمات القصة .. أنا لست قصصية حتى أعرف ما يقال وما لا يقال .. أو أعرف ما يشوق وما لا يشوق . ولكني لا أظن أن هناك ضرراً من أن أبدأ قصتي من تلك النقطة .. النقطة التي اندفعت عندها إلى الهاوية .. النقطة التي أضحيت بعدها شيئاً آخراً غير الذى كنته ، أضحيت امرأة سوء تتردى فى الظلمات .

كان ذلك فى يوم مازالت ذكراه واضحة جلية فى رأسى كأنه الأمس فقط ، يوم شتاء هبت فيه موجة من البرد عاتية قارصة تحمل فى جوفها قرّاً وزمهريراً .. واندفعت فى الطرقات الخالية لا ألوى على شيء ، تطاردنى الريح كأنها الذئاب العاوية وقد حملت طفلتى على كتفى أحاول أن أجد لنا مأوى يقينا غائلة البرد .. ومرت برأسى إذ ذاك صورة عابرة سريعة للماضى القريب ، الماضى الممتع الهنيء .. الذى مرّ كأنه لمح البصر ، أو كأنه حلم ، فى الدجى ، أو خلسة المختلس » .

خلسة المختلس ! ! ما أشد هذا الوصف انطباقاً علىّ .. وعلى تلك اللحظات التى كنت أمتع بها ، أجل يا سيدى لقد كنت مختلسة ، وكانت سعادتى اختلاساً ، وما ألذه من اختلاس .. لقد اختلست زوجى .. إختلسته اختلاساً ، لأنه

لم يكن لى الحق فى أن أقف بجواره مرفوعة الرأس وأقول على ملأ من الناس : « هذا هو زوجى » . . لم يكن لى هذا الحق الذى لا أظنه إلا حق كل أنثى تعتز برجلها وتتيه به ، لأننى كنت أعيش كالجرذان فى باطن الأرض ، أو كالخفافيش فى حلكات الليل ، ومع ذلك فقد كنت قانعة راضية . . بل أكثر من هذا ، كنت مثلا لامرأة سعيدة هانئة . . ولكن ، ما أعجب الحياة . . يقنع البعض منها بالنزر اليسير فتأباه عليهم ، وتغدق نعمها على البعض الآخر فيكفرون بها . لقد كنت من القانعين بقليلى ، وبنعمتى المختلسة . . فأبتها علىّ . . وحرمتنى إياها !

لقد كنت لا أجسر أن أقول إنه زوجى ، لأننى كنت خادمته قبل أن أصبح زوجته . ولقد كان كثيراً علىّ أن أصبح زوجته ، فما كان لخادمة أن تتزوج من سادتها وأبناء سادتها .

أقول كثيراً . . قبل أن تقولها أنت . . فإنى أعلم أنه شىء مفزع أن يتزوج ابن السيد خادمته ، ولكنى فى قرارة نفسى لا أحس أنه شىء كثير . . ألست إنسانا يا سيدى ؟ ! ! أليس لى قلب إنسان ، وإحساس إنسان . . أم ترى الخدم من جنس والسادة من جنس آخر ؟! على أية حال . . لا أظن المجال

مجال مناقشة فى مسألة كهذه .. فخير لى أن أسوق لك الحوادث مجردة من التعليقات .. وعقب عليها أنت كما تشاء .. فقط .. ليتك تنصفنى فما أحسست بالإنصاف مرة واحدة ، فى حياتى .

لقد أحببته وأنا صبية خادم .. وهو فتى فى مستهل شبابه وريعان صباه .. على وشك أن يضع قدمه على أول درجات مستقبل زاهر متفتح .. ولست أظن فى حبى له عجباً .. فقد كان كل ما فيه يحب .. خلقه وخلقه .. قلبه وروحه .. باطنه وظاهره .. كل شىء فيه جميل محبب .. وقد كان من المحتمل أن تمر المسألة مروراً عابراً .. وأن يظل حبى مستكناً فى صدرى .. حب خادم لسيدها .. حب لا ينبغى له إلا أن يطوى فى الحنايا .. ويحبس فى الضلوع .. لولا أن همسات القلب ـ على خفوتها وعلى محاولتى كتمانها ـ قد وجدت لها سميعاً مجيباً .. ولولا أن داء الفؤاد قد وجد له من الحبيب آسياً وطبيباً .. لقد أحبنى الفتى السيد !!

أتراه شيئاً يبعث على الدهش أن يحب سيد مثله خادماً مثلى ؟! مهما يكن الأمر فهذا هو ما حدث .. فالقلوب مجنونة .. ما خلق الله فى الإنسان أحمق منها ولا أخرق .. تندفع فى الحب بلا روية ولا تفكير ... ما استطاع امرؤ قط أن يسيطر عليها أو يتحكم فيها .

لقد أحبنى الفتى السيد !! .. كيف ؟ .. ولمَ ؟ .. لست أدرى !! أترى كان بى ما فتنه وأغراه ؟ .. أترى كان بى جمال حرّك قلبه ؟ .. كيف كنت وقتذاك ؟ .. ماذا أقول لك وليس من اليسير على المرء أن يصف نفسه .. وخاصة المرأة .. إذا قلت جميلة فكل امرأة تظن نفسها كذلك ، وإذا تواضعت فأنكرت على نفسى الجمال .. عزّت علىّ نفسى .. التى لم ينصفها أحد .. حتى أنا !! على أية حال لقد قالوا : (حسن فى كل عين من تود) .. وما دام الفتى قد أحبنى .. فلا شك أنى كنت حسناء فى عينه .

قد تقول إن الفتى اشتهانى .. مجرد شهوة .. كما يشتهى السادة خدمهم فى بعض الأحيان .. ولن أنكر عليك قولك فقد يكون به شىء من الحقيقة ، ولكن ما الحب؟ وما الشهوة ؟! هل يمكن أن نجعل من كل منهما شيئاً منفصلا . ليس لأحدهما صلة بالآخر ، . هل الحب شىء والشهوة شىء ؟ لا أظن .. وأنا كامرأة .. أقول لك إن الحب لا بد أن ينتهى إلى الشهوة والشهوة لا تطفئه بل تسقيه وتنميه .. وإلا جف وذوى .. أما الشهوة فلا يثيرها إلا من نحب .. فالحب والشهوة شيئان يتمم أحدهما الآخر .. فلا حب بلا شهوة ولا شهوة بلا حب . ولمَ لا أكون أكثر صراحة ، فأنبئك أن الحب يبلغ

أقصاه عند ما تبلغ الشهوة أقصاها .

لا تقل . . حديث امرأة بغى . . فكلنا فى هذا الأمر سواء . . البغايا وغير البغايا . . . كل ما فى الأمر أننى فقط أجرؤ على قوله ، وغيرى لا يجرؤ .

لقد أحبنى الفتى السيد ! ! ولنفرض أن حبه قد بدأ مجرد شهوة . . ماذا يضيرنى كيف بدأ . . ما دام قد أخذ يتطور ويتمكن فى قلبه على مر الأيام ؟ . وما دمت قد بدأت أجد لنفسى فى قلبه موضعاً هو أقصى ما أتمناه .

أجل ياسيدى . . قد يكون حبه بدأ بمجرد اشتهاء . . ولكن الأيام جعلت منه بعد ذلك حباً قوياً مخلصاً . . عنيفاً جارفاً . . لا يعوقه حائل . . ولا تقف فى طريقه عقبة .

ولقد مرت الأيام وعلاقتنا ـ ولا أقول حبنا حتى أثبت لك بما لا يحتمل الشك أنه قد صار حباً ـ يطويها الكتمان ، حتى أحسست فى ذات يوم أننى قد حملت . . فتملكنى حزن وقلق وأحسست بخوف شديد . . وخشيت أن أصارحه . . خوفاً من أن أحمله عبئاً يرهقه ولكنه أحس أن بى قلقاً . . وألح فى معرفة السبب . . فأنبأته .

ولو كان إحساسه نحوى مجرد شهوة . . لأفزعه الأمر ولحاول جهده التخلص منى . . ولأحس بى عبئاً يثقل كاهله

ويقوض ظهره . . ولو فعل ذلك لما أثار فعله شيئاً من الدهش، ولكنه لم يفعل . . بل أمسك بوجهى فى رفق بين يديه ومسح بشفتيه دموعاً ترقرقت فى عينى وسالت على صفحة وجهى . . وأنبأنى بصوت هامس أننا سنتزوج ! قول عجيب . . لا يصدقه عقل ! ! فالرجال أنانيون . . لا يسعهم فى مثل هذه الأحوال إلا أن يلقوا العبء على سواهم ويحاولوا التخلص منه بأقرب وسيلة . . ولكن الفتى لم يفعل . . بل سألنى الزواج . . ولا أظن هناك ما يمكن أن يبرر تصرفه . . أو يدفعه إلى ما فعل . . إلا شيئاً واحداً هو الذى يدفع الإنسان إلى فعل كل عجيب وهو الحب . . أجل . . لقد كان يحبنى ما فى ذلك شك .

ولم تكن مسألة الزواج من السهولة بحيث لا تعدو مجرد عرض منه وقبول منى . . فقد كان علينا أن نتوقع ثورة من أهله . . ومن أقربائه . . وأصدقائه . . بل ومن كل إنسان له به أدنى علاقة . . فما كان زواج فتى فى مثل مركزه بخادم مثلى بالشىء الذى يقبله العقل بسهولة . . . وكنت أكره أن أعرضه لتلك العاصفة . . فقلت له إنى سأفر من الدار وسأبعد عن طريقه . . وأعرف كيف أدبر أمرى . . ولكنه هزّ رأسه بشدة . . وأنبأنى أنه هو الذى سيعرف كيف يدبر أمرنا معا . ولقد استطاع فعلا أن يدبر أمرنا معا . . على خير حال،

ودون أن تثير حولنا أية عاصفة ، فقد استأجر لى سراً شقة صغيرة فى حى متواضع ... وفررت من الدار إليها .. وعقدنا زواجنا سراً .

وبدأت أحيا حياتى الجديدة .. التى قلت لك عنها ، إنها كانت خلسة المختلس ... ولقد كان كل همى وهمه أن نستر أنفسنا ، فكان يزورنى خفية فى أوقات متقطعة كأننا لصوص نقتسم غنيمة مسروقة .. ولقد كنا فعلا كذلك ، لقد كنا نقتسم لحظات هنيئة سرقناها فى غفلة من الزمن !

وكانت تمر بى أوقات تنتابنى فيها نوبات من الحزن عندما أخلو إلى نفسى فأرانى أحيا حياة الجرذان ، وعندما أحس أننى لا أجرؤ أن أقول إننى زوجته حتى لا أشين سمعته وأسبب له مهانة بين الناس .. ترى أهناك ما يحز فى النفس ويورثها الحسرة أكثر من أن يجد الإنسان نفسه مبعث مهانة ومصدر ازدراء لأعز الناس عليه وأحبهم إلى قلبه ، ومع ذلك فقد كنت سعيدة كل السعادة .. إذ كانت لحظات اللقاء تبدد تلك السحب القاتمة التى تتجمع فى نفسى ، وكنت أنسى كل شىء عندما أحس به يضمنى إلى صدره .

وأخيراً وضعت طفلتى ، صورة طبق الأصل منه . جميلة التقاطيع ، نبيلة الملامح .. طبع على محياها ابتسامة

جذابة . . لقد كانت ابنة السيد لا ابنة الخادم .

وملأت الطفلة حياتي بهجة وحبوراً . . ولم أعد أحس بالوحشة في غيابه ، ولم تعد تضنيني الوحدة كما أضنتني من قبل ؛ وقد سر أبوها أيما سرور ، وأحبها حب عبادة .

ومرت الأيام وأنا قريرة العين هانئة . . قانعة بأحلام الدجى وخلسة المختلس ، حتى أحسست فجأة أني أفيق من الحلم لأجد الزمن قد أبى عليّ القليل الذي سعدت به . . . ولأجده قد ضبطني متلبسة بجريمة اختلاس لحظات هنيئة في غفلة منه ، فقبض على عنقي ، ونزع غنيمتي من بين يدي . . أجل لقد انتزع مني زوجي ، أو قل لقد انتزع روحي ، وتركني جسداً بلا روح .

لقد مات زوجي الحبيب . . . زوجي الذي ما جسرت في حياته أن أقول إنه زوجي ، والذي كنت إذا ما ضممته إلى صدري انتابني إحساس اللص يتسلل بغنيمته في الظلمة يضمها إلى صدره خشية أن يستردها الشرطي ، وذهبت إلى قبره لأبكيه ، لا كزوجة بل كخادم ، فقد كرهت أن أثير حوله العاصفة التي تجنبناها في حياته . . ثم أي شيء سيعود عليّ من أن أعلن أنني زوجته سوى سخط أهله وغضبهم عليّ ، لا . . لا . . خير لي أن أكون شجاعة فأحمل العبء وحدي .

ولقد كان العبء ياسيدى ثقيلا .. ليس بالنسبة لى .. فلقد كان علىّ أن أحتمل الفجيعة ، وأن أصبر على قضاء الله .. وأتعوّد الحلكة التى شملتنى بعد موته .. أجل .. لقد كان الأمر – على مرارته – محتملا بالنسبة لى .. ولكن .. عندما كنت أفكر فى الطفلة .. كنت أحس بالاختناق .

هذه الطفلة العزيزة .. الجميلة النبيلة .. التى كنت أدبر لها فى رأسى كيف أربيها وأنشئها نشأة السادة ، وكيف كنت أنوى أن أجعلها ابنة أبيها .. وأن أجعلها خير الفتيات .. قد أضحيت ، لا أكاد أعرف كيف أجد لقمتها .

وطردت من البيت بعد فترة من الوقت .. فقد كنت لا أملك أجره وحملت طفلتى أهيم بها فى الليلة الليلاء القارسة البرد .. لا أكاد أجد مايقينى شر البرد وغائلة الجوع .

ومرت بى الأيام .. طريدة شريدة .. أجول وأستجدى حتى وجدتنى فجأة أقف أمام المسلك البرّاق والطريق المليء بالأضواء .. تغرينى أضواؤه بالدخول إليه ، وبأن أكف عن أن أكون امرأة شريفة تتضور جوعاً هى وابنتها .. إبنة السيد العزيز ، ولو كان الأمر يقتصر علىّ لاستطعت أن أحتمل .. ولا ستطعت أن أبقى شريفة مدى الحياة .. ولكن ابنتى يا سيدى ، ما ذنبها ؟ ما ذنبها ، هل أضحى بها ..

لمجرد أن يقال عنى امرأة شريفة ، لا . . لا . . يجب ألا أكون أنانية ، إنى أريد النقود لتربيتها ، والطريق أمامى ملىء بالنقود فلِمَ لا أخوضه ؟!

وبدأت حياتى الجديدة . . ولم تكن بالسهولة التى تصورتها ، فقد كانت حياة جهاد . . لاقيت فيها الأمرين ، ولكنى استطعت النجاح وأخذت أنتقل من درجة إلى درجة ، من امرأة شارع .. إلى امرأة بيت . . إلى امرأة صالة . . إلى راقصة ، وفى كل مرحلة من مراحل حياتى الفاجرة ، لم يكن همى سوى جمع النقود لتربية ابنتى ، ولقد نجحت كل النجاح ، واستطعت أن أربيها كأبناء السادة .

أنا الآن يا سيدى امرأة فى خريف العمر ، ولقد تخرجت ابنتى فى الجامعة .. نموذجاً للفتاة . . فى الجمال والكمال ، فى الخَلق والخُلق .. لا أقول ذلك لأنها ابنتى ، فكل من رآها قال عنها ذلك ، وكل من صادفها قال عنها إنها مثل أعلى ، منزه عن العيوب ، اللهم إلا عيب واحد .

ماذا تظن ذلك العيب ؟ ، خمن ، يا سيدى ؟ ما هو ذلك الشىء الوحيد الذى يقولون عنه إنه يعيب فتاتى !

إنها ابنة راقصة !!

تصور يا سيدى أننى ، أنا ، ذلك العيب الوحيد .

تصور بعد هذا الذى فعلته، لا أكون بالنسبة لابنتى فى نظر الناس، سوى شىء يعيبها؟. وهى تحس ذلك.. لا أقول إنها تخجل منى، فهى تحبنى حباً جما، وتقدرنى كل التقدير، وتعرف كل ما فعلت من أجلها، ولكن كل ذلك لا يمنعها من أن تحس أن الناس يروننى شيئاً يشينها.. لقد خطبت ثلاث مرات، خطبها أناس صادفوها فأعجبوا بها أيما إعجاب، ولكنهم تركوها كلهم، عندما علموا أنها ابنتى.

أنا حزينة ياسيدى، وحائرة، إنى عقبة فى طريق ابنتى، وبودى لو أزلت نفسى من طريقها، حتى أتمم ما فعلت من أجلها، ولكن كيف؟. بالانتحار؟ لا أظن، فسيثير ذلك ضجة من حولها تضرها كل الضرر.

ألا توجد طريقة للموت البطىء، الموت الذى يبدو طبيعياً فلا يثير ضجة؟. إنى أحس أننى قد أديت واجبى... وأن واجبى الآن هو أن أذهب عنها، حتى أزيل عنها ما يشينها، هل من طريقة للذهاب ياسيدى؟

° ° °

هذا خطاب من راقصة قديمة وصلنى منذ بضعة أشهر، أبكانى فطويته، وتمنيت لو لم أكن متزوجاً حتى أذهب إلى الفتاة فأتزوجها وأنا رافع الرأس فخور بها وبأمها.

ولقد ألقتنى الظروف بعد ذلك فى طريق الفتاة . . فوجدتها مثلا أعلى ونموذجاً للفتاة ، حتى هذا العيب الذى كان الناس يرونه بها ، قد ذهب ، لقد ماتت أمها !!

كيف ماتت ؟ . لست أدرى .

بقيت لى كلمة قصيرة ، دعونى أسوقها إلى المرأة فى قبرها . . فقد يكون لهـا فيها عزاء . . . إن كان الموتى يطلبون العزاء .

سيدتى . . لقد اتهمتنى بأنى أحرك القلم على وريقاتى بكلمات قد لا يكون لها أقل الأثر فى نفسي ، سامحك الله ، فما كنت قط كذلك . . إننى لا أكتب إلا حين أشعر . . . ما رأيك فى العنوان ؟ . إننى مقتنع به كل الاقتناع . . . فأنت امرأة شريفة . . بل أشرف امرأة صادفتها ، ولو قلت عنك غير ذلك لـكنت أحمق لا أعرف مقاييس الشرف !!



امرأة غفور

يا للمرأة الوفية الغفور ...

لقد لفظتُ حبها ، فأبقت على حبي ...

لقد سلبتها الحياة ، فوهبت لي الحياة ..

لقد أبيت عليها المغفرة ، فمنحتني المغفرة ،

وأية مغفرة ! ...

حدثني صاحبي قال :

— دعني أذكر لك كيف كنت فى صباى أسير فى محيط الظلمات .. ظلمات الفقر والوحدة والوحشة .. وكيف بارحت بلدتى إلى القاهرة وأنا صبيّ صغير لأتلقى العلم ، وكيف كنت أقطن فى حجرة رطبة مظلمة أنا وخمسة صبية اقتطع أهلوهم من أرزاقهم أجور تعليمهم وأخذت أنتقل من مرحلة إلى مرحلة وأنا مثل لتلميذ قروى فقير .. يبدو عليه الحرمان فى كل مظهر من مظاهر الحيـاة : المأكل والملبس والمسكن . ومع ذلك فقد دأبت على السير .

واستطاع الأهل أن يقتروا على أنفسهم ليقتصدوا مايكفى لدفع المصروفات ، حتى رزئت بموت أبى . وهنا كان أمامى أن أسلك أحد طريقين : إما أن أعود إلى القرية متناسياً تلك المرحلة التى قطعتها من مراحل التعليم ، وإما أن أكافح وحدى حتى أصل إلى نهاية الطريق . ولم يطل بى التفكير حتى اخترت



الأمر الثانى إذ كان من العسير علىّ وقد قطعت نصف المرحلة أن أعود أدراجى إلى حيث كنت .

وبدأت كفاحى . . كفاحى من أجل « لقمة العيش » . . وكنت وقتئذ فى السنة الرابعة الثانوية والتحقت بعمل تافه كنت أكاد أحصل منه على ما يقيم أودى .

وأخذت فى الاستذكار حتى استطعت الحصول على شهادة الدراسة الثانوية .

ومرت بى الأيام فوجدتنى أخوض غمار وسط جديد . إذ حاولت أن أجد من الصحافة مورداً للرزق ، وكنت أعرف زميلا لى يكتب فى إحدى المجلات أخبار المسارح والصالات ويحصل من ذلك على أجر زهيد ما كان أحوجنى إلى مثله فى ذلك الوقت .

وبدأت أترسم خطاه ، وكان الأمر يحتاج منى أن أندفع إلى هذا الوسط الغريب عنى ، وأن أختلط بأهله وأتتبع أخبارهم . ولست أكتمك أنه لم يكن أحب إلى نفسى من ذلك ، فقد كان الوسط ـ على انحطاطه وفساده ـ مليئاً بالفتنة والإغراء . . ولم يكن أسهل على نفس فتى قروى فقير محروم من الاندفاع إلى حيث يجد الفتنة والإغراء . . ورغم ذلك فقد كنت حكيما ، متئداً ، فلم أنزلق كل الانزلاق ، ولم أجعل من عملى فى ذلك الوسط إلا وسيلة تعيننى على الحياة .

وفى وسط تلك الظلمات الحالكة ـــ التى احتاطت بى ـــ بدت لى فى الأفق بارقة تستدعينى . . أنا الذى لم تسنح فى ظلماته بارقة ولا أشرق سنا .

رأيتها أول مرة تغنى فى إحدى الحفلات الخاصة وأستطيع

أن أؤكد لك أنه لم يكن بها جمال خارق أو فتنة صارخة .. بل كانت تتساوى مع غيرها من المطربات والراقصات اللواتى طال عهدى بهن حتى أضحين لا يحركن فى ساكنا . . وباتت نظرتى إليهن لا تزيد عن نظرتى إلى الدمى والعرائس الخشبية . ولكن مع ذلك لم أكد أنظر إليها وأستمع لغنائها حتى غمرنى إحساس جارف قوى يدفعنى إلى أن أذهب إليها فأحتويها بين ذراعى . لقد شعرت أنها مخلوقة ، مرهفة الحس ، تختلف كثيراً عن هؤلاء الزائفات التافهات اللاتى تعوّدت أن ألقاهن فى هذا الوسط . وأقبلت عليها فى شوق ولهفة ، وأنا أشعر فى قرارة نفسى أن هذه المخلوقة لى ، وإنى وحدى مالكها وصاحبها . ولم يخدعنى حسى فقد أقبلت علىّ هى الأخرى . . وأدركت من نظراتها أنى أعنى شيئاً لديها . . فملأتنى النشوة واستخفنى الطرب ، وخاصة أننى لم أكن بخير الحاضرين لا شكلا ولا ، موضوعاً ، حتى تخصنى وحدى بذلك القدر من الاهتمام والإقبال التى شملتنى بهما .

ومنذ تلك الليلة أصبحت غريق هوى . . فأغمضت عينى إلا عن صورتها ، وتصاممت إلا عن صوتها . وأخذت أدبر أمرى باعتبار أنها شىء لا أستطيع العيش بدونه . . وبدأت أفكر جدياً فى زواجها .. ورغم أننى كنت واثقاً من حبها لى

ومن أنه لا يسعدها شيء كزواجنـا . . فقد ترددت فى الأمر كثيراً ، لا لأنى لم أجدها كفئاً لى ، بل لأننى لم أكن كفئاً لها . . أجل ! إنى لم أكن أملك المال الذى يهيىء لها الحياة التى تتوق إليها ، أو على الأقل يجعلهـا تعيش كما هى فى بسطة من العيش وفى رغد من الهناءة .

وفى ذلك الوقت بدت لى فرصة سانحة لـكى أكون خيراً مما أنا ، ولـكن كان يتحتم علىّ أن أغادر القطر لبضع سنين . . ودفعنى أمل الشباب وحافز الحب إلى أن أقدم على السفر حتى أعود وبنفسى تلك الثقة التى كنت أفتقدها وقتذاك .

وأنبأتها بمـا عزمت عليه . . فأصابتها الدهشة وحاولت أن تثنينى عن السفر ، ولـكنى قد حزمت أمرى . . وأخيراً افترقنا وبنفسينا لوعة . . وهمست فى أذنى أن صورتى لن تفارق مخيلتها ، وأنهـا ستذكرنى فى كل لحظة . . وأنها ستعد الأيام حتى أعود .

ولست أدرى كيف ينقلب عزم الإنسان فيتحول لجأة إلى ضعف وتخاذل . . إنى لم أكد أبدأ الرحيل ياسيدى حتى أحسست بانهيار لجأتى ، وبحنين إلى صاحبتى . . وأخذت أسائل نفسى أى حمق دفعنى إلى الرحيل ؟ . لِمَ لَمْ أمكث معها وأنعم بقربها حتى يفعل القدر بنا ما يفعل ؟

ولم تكن هناك فائدة من هذا التخاذل فقد قضى الأمر . ولم يكن عليّ إلا أن أتماسك وأحتمل الرحيل ، وأن أحتمل كذلك فرقة الأعوام الطويلة .

ولك أن تتصور يا سيدى كيف مرت بى الأعوام فى غربتى مليئة بالوحشة والكآبة . . يعصف بى الحنين ويضنينى الشوق . ولم تبارح صورتها مخيلتى لحظة واحدة . . أراها فى كل ما أبصر وأحس بها فى كل ما أفعل .

وأعتنق الغصن الرطيب لقدها

وألثم ثغر الكأس أحسبه فاها

لا يكاد يعيننى على الفرقة إلا رسائلها الحارة الملتهبة ، والتى لم تنقطع إلا قبل عودتى ببضعة أشهر كنت خلالها أتقلب على جمر القلق ونيران الأسى ! . وأخيراً حل موعد العودة ، ولا تسأل عما كنت أحس به من اضطراب أثناء عودتى ، وكيف كنت أصور لنفسى لقاءها . . ماذا أفعل وماذا تفعل هى ، وأرسم فى ذهنى التفاصيل والحذافير وأحس منها بنشوة ومتعة .

ووصلت إلى القاهرة . . وذهبت إلى دارها . . وسألت عنها . . فقيل لى إنها انتقلت من الدار ، وأحسست بالخيبة . ولكن لم يكن من العسير عليّ أن أعرف عنوانها الجديد .

فانطلقت إليه . . وطرقت الباب ، فأجابنى صوتها ، أجل صوتها هى ، فقد نفذ إلى قلبى فجعله يكاد من فرط الطرب يرقص ، وفتحت الباب ، ووقفت أمامى بلحمها ودمها بعد طول غيبة .

ونظرت إلىّ فى دهش شديد ، وتراجعت بضع خطوات فدلفت إلى الداخل ووجدت فى الجو شيئاً غريباً لم أفهمه . . شيئاً استطعت أن أحس به ، ولكننى لم أدرك كنهه . . شيئاً بدا لى جلياً من نظراتها المليئة بالدهشة التى يشوبها شىء من الذعر ومن لقائها الذى لم أكن أتوقعه .

واندفعت إليها أضمها إلى صدرى فقد خيّل إلىّ أن الأمر كله ليس إلا مظهراً لمفاجأتى لها . . ولكنى أحسست بها تتخلص من بين ذراعى وتدفعنى بهدوء ثم تنبئنى أنها قد تزوجت . . تزوجت ؟! هى تزوجت ؟! أيمكن أن يكون هذا معقولا ؟!

أية صاعقة انقضت على رأسى فتركتنى فاقد الحس غائب الوعى ، من يكون ذلك الشخص الذى احتواها حتى لفظتنى من أجله ؟

لقد كان صاحب المسرح الذى تعمل به !!

ووقفت أمامها ، شارداً حائراً ، جامداً مذهولا .

آه يا سيدى لو أدركت المشاعر التى كانت تصطخب

فى صدرى وقتذاك . . وأنا أرى حبيبة العمر التى شددت قلبى إليها وربطت مصيرى بمصيرها قد خدعتنى وخذلتنى ولفظتنى لفظ النواة . . أنا الذى آثرت الغربة والفرقة لكى أستطيع أن أهيىء لها الراحة والهناءة .

وانتابتنى فجأة ثورة من الغضب .. عاصفة عاتية .. وتبدد الحب من نفسى فانقلب بغضاً شديداً .. وتملكتنى رغبة جامحة فى أن أحطمها كما حطمتنى ، وأمسكت بها بين يدى أهزها هزاً عنيفاً . ووقفت تنظر إلىّ وقد تملكها ذعر شديد . وحبست الكلمات فى صدرها ، فلم تستطع النطق . وحاولت عبثاً أن تتخلص من بين ذراعى ، وأخيراً دفعتها دفعة قوية ألقت بها على الأرض .

وعندما سقطت اصطدم رأسها بآنية نحاسية قد وضعت فى ركن الغرفة .. ووقفت لحظة أحدق فيها وأنتظر أن تنهض أو تتحرك ، ولكنى لم أر فيها عضلة تختلج .. بل رأيت الدم يسيل من جرح فى مؤخرة رأسها ، فأحسست بأطرافى تتجمد ووقفت برهة لا أحرك ساكناً ولا أحس بشىء . . فقد كنت فى حالة ذهول تام ، ثم بدأت أفيق لنفسى ، واقتربت منها أتحسسها بيدى ، فإذا هى جثة هامدة لا حراك بها !

هل سبق لك أن قتلت إنساناً ياسيدى ؟ . وأى إنسان ؟

إنسان تجد فيه توأم روحك ونصف نفسك ؟ . طبعاً لا . إذن فمن العبث أن أحاول أن أبين لك مشاعرى فى تلك اللحظة المخيفة .. لحظة أن اكتشفت أننى قتلت صاحبتى ، لقد اجتاحت نفسى عاصفتان من المشاعر : عاصفة من الشعور بالوزر والخوف الشديد من نتائجه ، وعاصفة أخرى من الحنين القوى والحب الجارف .

ومضت لحظة وأنا ثابت فى مكانى تتقاذفنى الأحاسيس المتناقضة المختلفة ، وأخيراً تغلب الشعور بالخوف وطرد من نفسى كل ما عداه من المشاعر ، فوجدتنى أتسلل من الغرفة ، تاركاً كل شىء على ماهو عليه ، وانطلقت من الدار هاربا .

انطلقت فى طريق .. مجرماً يطارده شبح جريمته ، وقاتلا تقض مضجعه الوساوس وتلاحقه الأوهام .

وفررت من القاهرة إلى إحدى القرى النائية ، ومرت الأيام وأنا قابع فى مخبئى منقطع عن العالم تمام الانقطاع حتى بدأت نفسى تهدأ بعض الشىء .. ثم ألقت بى الظروف إلى رجل طيب يملك مطحناً لطحن الغلال ، فاستخدمنى كاتباً فى مطحنه ، وأحس الرجل بالاطمئنان إلىّ وأحسست بالاطمئنان إليه ، فوثقت عرى الصداقة بيننا وازدادت ثقته فىّ على مر الأيام .. وسرنى منه أنه لم يحاول أن يزج بنفسه

فى ماضىّ ، ويثقل علىّ بأسئلة قد أجد منها حرجا ، بل أخذنى على علاتى وقبل بسهولة تلك الرواية التى رويتها عن نفسى والتى أخفيت منها كل ماقد يكشف عمن أكون ، أو عن الجريمة التى خلفتها ورائى .

وكانت للرجل ابنة ، لم أكن أرى فيها أكثر من طفلة لاهية . . ولم أحاول أن أتخيلها أكثر من أنها طفلة لاهية ، وإن كانت هى فى الواقع أكثر من ذلك الخيال . . أجل لقد كانت من نوع عجيب .

أتدرى ذلك النوع من الفتيات التى إذا ما قلت عنها ابنتك صدقوك ، وإذا ماقلت عنها زوجتك لم يكذبك أحد ؟ ذلك النوع الذى يطالعك من وجهه طهر الطفولة وبراءتها ، ويبهرك من جسده سحر الأنوثة وطغيانها . . لها وجه طفلة على جسد امرأة ؟ ذلك الشعر الذى ينساب على ظهرها انسياب الغدير ، وهاتان العينان الصافيتان ، وثغرها المتلألىء وجسدها الممتلىء الممشوق الذى يفيض بالحياة والذى يجعلها لا تسير كما نسير . . بل تقفز وتتوثب .

لا تظنن وصفى لها وصف معجب مأخوذ . . فإنى ياسيدى قطعاً لم أكن أنوى أن أشتبك معها فى معركة غرام ، لأنى ــ كما قلت لك ــ لم أكن أرى فيها أكثر من طفلة ،

وفوق ذلك لم أكن قد أفقت بعد من حبي الأول ولم أكن فى حالة من راحة الضمير وهدوء النفس بحيث يسهل علىّ أن أقدم على هوى أو أقع فى غرام .

ومع ذلك .. ومع كل ما سلف ذكره .. وقعت فى الشرك .. لا تسلنى كيف ؟ لا تسلنى لِمَ ؟ إلا إذا كنت تسمح لنفسك أن تسأل مجنوناً لِمَ جن ، أو ميتاً لِمَ مات ؟ هذا قضاء الله ولا راد لقضائه .

وبدأ الأب بدوره يحس هواى ، وبدا لى من تضييقه الخناق علينا أنه يخشى مغبته ، فوجدت من الخير أن أشعره أننى لا ألهو وأنى أرغب فى الزواج من ابنته .. وبدأت ألمح له بذلك فلقيت منه ترحيباً .

وتمت الخطبة بيننا ، وكان كل ما حولى يبعث على الاطمئنان والهدوء .. ولكننى مع ذلك كنت أحس قلقاً ، وكان يخيّل إلىّ دائماً أن ذلك الهدوء الذى يحيط بى ليس إلا الهدوء الذى يسبق العاصفة ، وكنت أعتقد فى نفسى اعتقاداً جازماً أن العاصفة آتية لا ريب فيها .. عاصفة جارفة لاتبق ولا تذر .

وكان المفروض أن حب صاحبتى سيخفف عنى شعورى بالوزر ، ويذهب عنى وطأة الضمير .. ولكننى رأيت الأمر

على النقيض ، فقد بدأ الإحساس بالجرم يتضاعف .

واستمر قلقي يتزايد لحظة بعد لحظة .. ويوماً بعد يوم . حتى كان ذات يوم وقعت الواقعة فقد أبصرت شرطيين يقبلان عليّ .. فأحسست برجفة .. وانتابني فزع ، ورغم أن الشرطيين لم يكونا قد قدما إلا لمخالفة تافهة وقعت من المطحن ، إلا أنني لم أتريث حتى أعرف سبب قدومهما .. بل أيقنت أنهما قد حضرا ليقبضا على واندفعت كالمجنون إلى صاحب المطحن .. لأعترف أنني القاتل .. وأذكر له قصتي ، وأقول له أنني قد خدعته ، ووقف الشرطيان ينظران إليّ في دهشة كأنني مخبول أو مجنون .. ثم أنبآنا عن سبب قدومهما .

وكدت أصعق يا سيدى ، ومع ذلك فإنى لم أندم ولم أتراجع .. إلى متى أظل هكذا مثقل الضمير مرتعد الأوصال ؟ إلى متى هذا الفزع الدائم والخوف المستمر ؟ ماذا يمكن أن يصيبني أكثر مما أنا فيه ؟ . إن الموت خير من توقعه .. والسجن أفضل من انتظاره ، أجل ! لاشيء هناك شر من هذه الوساوس التي تنهش صدري .

وقادوني إلى المركز . . . وأودعت السجن في انتظار ما يسفر عنه استفهامهم عن حقيقة الجريمة من محافظة القاهرة ومر يومان وأنا ملقى في السجن جسداً بلا روح . وفي صباح

اليوم الثالث ، طلبنى المأمور ، لا ليرسلنى إلى سجن القاهرة ، بل ليطردنى من أمامه شر طردة . . وينذرنى بألا أحاول إزعاجهم بالتبليغ عن جرائم وهمية بعد ذلك ، فإن المطربة المذكورة قد ماتت حقاً ، ولكن وفاتها كانت طبيعية .

أية دهشة تملكتنى وقتذاك ؟ . . كيف استطعت أن أحتفظ بصوابى فلم أجن ؟؟ لقد سرت فى طريق شارداً ذاهلا ، وتوجهت إلى بيت الرجل صاحب المطحن . . فإذا به يوصد بابه فى وجهى . . ويطردنى شر طردة ، لأنه لم ير فىّ إلا أحد رجلين : إما مجرم أو مجنون ! . ولقد كان الرجل معذوراً حقاً .

وذهبت أهيم على وجهى عائداً إلى القاهرة . . ذليل النفس ، كسير القلب . . وساقتنى قدماى من حيث لا أشعر إلى بيت صاحبتى الأولى .

لقد وجدت الدار قفراً بلقعاً . ولقيت بها زوج صاحبتى « صاحب المسرح » وقد طوته الوحدة والوحشة وبدا محطما مهدماً . . ورحب بى الرجل وجلسنا نتحدث عنها . . وفجأة رأيته يرفع رأسه ثم يقول :

— لقد أجرمت فى حقك وفى حقها . . لقد سلبتك إياها وسلبتها إياك . . لقد كنت أريدها فنعت عنها رسائلك

فى الأشهر الأخيرة وأنبأتهـا أنك قد تزوجت . . وظللت بها أغريها بزواجى وأضيق عليهـا الخناق حتى قبلت . . ولـكنى كنت أحمق .. فما استطعت قط أن أستولى على قلبها فلقد ظل ملكاً لك . . إنها ما نسيتك لحظة واحدة .

وأحسست برعدة فى بدنى وغصـة فى حلقى ، ووجدتنى أسأله بصوت مبحوح ذلك السؤال الذى ليس هنـاك أدرى منى بإجابته : « كيف ماتت ؟ ! » .

فأجاب :

ـ لقد عدت إلى الدار ذات يوم فإذا بهـا ملقـاة على الأرض تلفظ أنفـاسهـا الأخيرة وقـد أصيبت بجرح فى رأسها . . وفى سكرة الموت أنبأتنى أنها أحست بإغماء وأنها هوت إلى الأرض . . فلقد كانت حاملا .

وصمت كلانا فلم ننبس ببنت شفة .

آه يا سيدى لو تعرف كيف أدمى قول الرجل قلبى . . ومزق حشاى .

وشرد بى الذهن فتخيلت جسدها مسجى أمامى بلا حراك .

يا للمرأة الوفية الغفور . .

لقد لفظت حبها فأبقت على حبى . . لقد سلبتها الحياة

فنحتنى الحياة .. لقد أبيت عليها المغفرة فسمحت لى بالمغفرة .
وأية مغفرة !!

آه لو كان الموتى يفتدون .. لافتديت قلامة ظفرها بكل عمرى !!



امـــرأة ...

المرأة أنانية . . انها تحب نفسها أكثر مما تحب أى رجل . . أما حبها لأى رجل فيختلف بقدرما يعطيها من المتعة . . متعة المال . . أو متعة الجسد . . أو متعة القلب. ان المرأة تحب نفسها أولا ، ثم تحب من الرجال أقدرهم على ارضاء نفسها ...

نجعلها أقصوصة رمزية.. حدثت في قديم الزمان.. ولنجعل حوادثها تقع في الصين أو في الهند أو في أي مكان.. لأن الزمان أو المكان ليس لهما تأثير يذكر في مثل هذه القصة.. إذ لا شك أنها قد حدثت، وتحدث، وستحدث في كل مكان، وفي كل زمان.

أبطالها ثلاثة: زوج كهل ذو مال وجاه وسلطان.. وزوجة فتية ذات جمال وسحر وفتنة.. وتابع — صديق أو أجير أو ليكن من كان — في ربيع العمر ومستهل الحياة.. يفيض منه الشباب ويمتلىء بالقوة.

هذا هو الثالوث.. الذي لا يكاد يلتقي في هذه الحياة — وكثيراً ما يلتقي — حتى يكوّن قصة ذات وجهين... أو ذات موضوعين: حب.. وخيانة.. حب بين الطرفين الثاني والثالث.. ينتج عنه خيانة للطرف الأول.

ولا أظن من العجب أن ينتج لقاء هذا



الثالوث قصة . . وأن ينشأ عنه الحب وتقع الخيانة . . لأن هذا شيء لا يمكن إلا أن يقع ، إلا إذا كان يدهشنا أن نشعل ثقاباً فى مادة ملتهبة .. فتضطرم النار .. ولكن العجيب حقاً هو ألا يرى النار مشعلها . . وأن يكون أجهل الناس بالقصة التى تجرى حوادثها تحت بصره هو بطلها الأول . . أو ضحيتها الأولى .

وفى قصتنا هذه لا يبدو البطل . . أو الضحية خيراً من سواه فى بقية القصص المماثلة . . أو على الأقل هذا ما كان يخيل لمن كان حوله من الناس . . فهو فى غفلة عما يجرى بين زوجته الحسناء وتابعه الشاب . . لا يكاد يحس شيئاً مما تلوكه الألسن وتتشدق به الأفواه . . ولا يكاد يشم رائحة لغدر أو خديعة . . فهو قرير العين ناعم البال . . لا يظن بامرىء شراً ولا يتوجس خيفة .

نقول إن هذا هو ما كان يخيّل إلى الناس . . حتى حدث بعد ذلك ما أثبت أنهم كانوا فى ظنهم جد مخطئين . . جد واهمين .

فى ذات يوم أعلن الرجل ، الأمير ، عزمه على الخروج إلى الصيد .. وأمر رجاله أن يشدوا رحالهم ويحزموا أمتعتهم وأن يأخذوا معهم ما يحتاجونه من مؤن ومياه . . إذ أن

رحلتهم ستطول بعض الوقت ، فقد كان فى نيتـه أن يجول جولة طويلة وسط الغابات .

وسار الركب يتوسطه الرجل .. طويل القـامة نحيف الجسد .. قد وخط الشيب شعره ، وأخذت التجاعيد مكانها من وجهه ، وعن يمينـه زوجته الصبية الفـاتنة .. بشفتيها القرمزيتين الممتلئتين وأنفها الدقيق وبشرتها الشديدة النقاء .. وجسدها الذى يحس الناظر إليه سخونته دون أن يمسه .. والذى يشعر بدفئه دون حاجة منه لأن يحتويه بين ذراعيه .. فهو أشبه بجمرة ملتهبة تشع بالحرارة والدفء .. فهى امرأة قد لا نخطىء كثيراً إذا ما سميناها : « امرأة ساخنة » .

وعن يساره سار تابعه الوفى الأمين .. دقيق تقـاطيع الوجه ، حلو الملامح ، قوى الجسد ، متين البنيان ، وقد رمى ببصره إلى الأفق البعيـد .. وإن كان لا يفتـأ يلقى بين آونة وأخرى بنظرات خاطفة إلى وجه الرجل السعيد المغتبط .. ووجه المرأة القلق المتبرم .. الذى كان يبدو فيه واضحاً مدى نفورها من الرحلة ومن وعثاء السفر .

وطال بهم الرحيل .. ومرت بضعة أيام والقافلة جادة فى السير .. والرجل كما هو .. يكسو وجهه قنـاع من الرضى والغبطة ، وامرأته المخلصة عن يمينه ، وتابعه الوفى عن يساره .

معنا فى السير لا تبدو عليه نية وقوف .. حتى بدأ القلق والتبرم الذى يلوح على المرأة ينقلب إلى خوف حبيس يعتمل فى نفسها ، وتبدو بوادره فى تلك النظرات الحائرة التى تتبادلها مع الفتى من وراء ظهر الرجل .

وأخيراً .. وبعد أن عيل الصبر .. ونفد الاحتمال .. أشار الرجل بالوقوف .. فتنفست المرأة الصعداء . وأحست بالكثير من الراحة .. الراحة الذهنية .. فقد أدركت أن الفرصة ستسنح لها بأن تفضى إلى الفتى بتلك الهواجس ، التى اصطخبت فى صدرها طوال الطريق ، والتى منعها ظل الرجل القائم بينهما من أن تفضى إليه بشىء منها .

وأمر الرجل بأن تنصب الخيام .. فوضعت خيمة له فى الوسط ، وخيمة لامرأته على يمينها .. وأخرى لتابعه على اليسار .. أما بقية الحاشية فقد وضعت خيامها على مسافة بعيدة بعض الشىء .

وكان الظلام قد أقبل ، فأمر الرجل بأن يذهب كل إلى خيمته ليستريحوا .. ثم يبدأوا الصيد فى الصباح .

واستقر القوم فى خيامهم ، وأغمضوا جفونهم وراحوا فى سبات عميق .. وخيم على المكان سكون الليل .. حتى تنفس الصبح .. فإذا بأصوات تشق أجواز الفضاء . وإذا

بالمرأة قد أقبلت على زوجها فزعة مرتعدة ، وهى تصيح فى صوت مرتجف :

ــ لقد قضى علينا . . لقد أوقع بنا اللصوص الخونة . . لقد ذهب الرجال جميعاً حاملين معهم كل شىء . . وتركونا بلا ماء ولا غذاء . . تركونا لنلقى حتفنا فى هذه البقعة المقفرة الموحشة . . لقد أخذوا معهم كل شىء .

وفى نفس اللحظة أقبل الفتى صائحاً فى دهش وفزع :

ــ يا سيدى لقد تآمر علينا الرجال .. لقد فروا فى جنح الليل . . وتركونا ليفتك بنا الظمأ والسغب .

وقام الكهل من فراشه ببطء وأشار إليهما آمراً أن يكفا عن الصياح وقال فى هدوء : « لم يفر الرجال ! ! أنا الذى أمرتهم بالعودة ! ! » .

وبدرت من الاثنين صيحة دهش ، وفغر كل منهما فاه ، وحملق بعينيه متسائلا . وأردف الرجل يقول بلهجته الهادئة :

ــ إن هناك أمراً أريد تسويته بيننا ، ولست أرغب أن يبلغ آذان الرجال منه شىء .

وفهمت المرأة ، وفهم الفتى . . وشحب وجهاهما شحوباً شديداً . . واستمر الرجل يقول :

ــ سأخرج عن التلميح إلى التصريح ، وسأفصح لكما كل

الإفصاح .. إن المرجفين يتحدثون عن أشياء شائنة تجرى خلف ظهرى .. ويقولون إن امرأتى قد خانت العهد ولوثت بالأقذار ذيلها وذيلى .. أتريان فى قولهم حقاً ؟

وأجابت المرأة فى صوت مبحوح وأنفاس مبهورة :

ــ إنهم فى قولهم لكاذبون .. أقسم أنها أراجيف باطلة كاذبة .. وأنها زور وبهتان .

وحوّل الرجل نظره إلى الفتى قائلا :

ــ وأنت .. ما قولك ؟

وصمت هذا برهة قبل أن يجيب فى صوت خفيض :

ــ لا فائدة من الإنكار .. لقد حدث ذلك الشيء الذى دار بخلدك ، والذى تحدثت عنه الناس .. لقد حدثت تلك الأشياء التى وصفتها بأنها شائنة .. وأنها خيانة للعهد وتلويث بالأقذار ، وإن كنت أرى أن الألفاظ التى استعملتها ليست ملائمة تماماً .. ولكن ماذا تغنى الألفاظ .. وماذا تستطيع أن تغير من حقيقة الواقع .. ما دامت الأشياء قد حدثت فعلا .. ولكنى أود أن أقول لك أن من الخطأ أن تلقى تبعة ماحدث عليها هى .. أو علىّ أنا .. لقد كنا مسوقين مقودين .. مسلوبى الإرادة .. فاقدى التصرف .. حمّل القدر لومك إذا أردت اللوم .. فقد شدّنا بوثاق ودفعنا دفعاً إلى

هذا المصير . . لقد وهبنا للحب . . وكان من العسير علينا أن نرد الهبة .

وأجاب الرجل بصوت يقطر مرارة :

ــ هبة القدر . . لقد دفعت أنا ثمنها غاليا . . لقد أعطاكما القدر هبة من حسابي الخاص . ولكن ألم أهب لك أنا من قبل كل مااستطعت . . ألم أطعمك من جوع وأؤمنك من خوف ! ألم أنتزعك من براثن الشقاء لأجعلك لى ابنا حبيبا وتابعا وفيا . . لشدما كفرت بنعمتي وكنت من الجاحدين . ماأشبهك معى بتلك الأفعى التى كان منقذها أول من لدغ منها .

ثم التفت إلى المرأة موجها إليها الحديث فى سخرية أليمة :

ــ وأنت . . أنت أيتها الطاهرة النقية . . المخلصة الوفية . هل تمتعت أيضاً بهبة القدر ؟ . أو لم يكفك ما وهبت لك من عطف وحب ، وما هيأته لك من حياة ناعمة راضية هانئة ؟

ثم اشتدت لهجته وبدت فيها رنة غضب مكتوم حين أردف قائلا :

ــ ولكن ما لنا وللتأنيب والتثريب ، وماذا يجدينا الكلام بعد أن وقعت الواقعة . . والكلام لم يعد وسيلة للعلاج لأن علاج الفعل يجب أن يكون فعلا مثله . . أجل ليس

أمامنا إلا أن نمحو العـار ونغسل الخطيئة . . ليس أمامنا إلا أن نذكر قول القائل :

« خير للإنسان أن يموت شريفاً من أن يعيش بلا شرف »

وبدا الفزع على المرأة وهمست فى نبرات مرتجفة :

ــ لست . . لست تنوى قتلى ؟!

وتقدم الفتى بخطوات ثابتة . . وقال :

ــ إذا كان لا بد لك من أن تريق دماً على جوانب شرفك الرفيع حتى يسلم من الأذى .. فليكن ذلك الدم دمى . وإذا كانت هناك جريرة فضعها فى عنقى واتركها هى . . لأنها لا ذنب لهـا .

وهز الرجل رأسه ببطء وقال بصوت ملىء باليأس :

ــ بل الذنب كله ذنبها . . لقد كانت هى منبع الشر وأصل الخطيئة ، وهى التى يجب أن تستأصل . . أما أنت فسأضع مصيرك بين يديهـا . . إنها هى التى ستقرر موتك أو حياتك .

وحملق الإثنان فيه بدهش وذهول . . ولم يفهما ما يعنيه بقوله . . واختفى برهة . . ثم عاد وقد حمل فى يده جرة ماء ، ووجه الحديث إلى المرأة قائلا :

ــ هذا هو كل ما تبقى لنا من المـاء ، وهو يكفى لأن

ينقذ واحداً منا حتى يعود إلى المدينة .. أما الباقيان فلن يكون أمامهما إلى الموت ظمأ فى هذه البقعة المقفرة ، وستكونين أنت أحدهما ، أما الثانى فعليك أن تختاريه .. أجل ! أعطى الجرة من تشائين .. أعطيه الجرة فيذهب هو وأموت أنا بجوارك ، أو أعطينها فأعود أنا وأتركما لتموتا سوياً .

وبدا على المرأة ذهول وتحجرت عيناها فى مقلتيهما وهى تحملق فى الجرة ، وبدت شفتاها جافتين باهتتين ولم تنبس ببنت شفة !

واستمر الرجل فى قوله :

— فكرى جيداً .. إنك تملكين فى يدك حياة أحدنا ، أنا لا أطلب منك أن تجيبى الآن ، بل سأعطيك فرصة للتفكير .. عودى الآن إلى خيمتك ، وسننتظر حتى تهبط الشمس ، وعليك حينئذ أن تقررى ما تشائين .

وعادت المرأة إلى خيمتها وقد حملت الجرة ، وبدت فى مشيتها مهدمة محطمة ، وسار الرجل والفتى كل إلى خيمته .

ومرت الساعات فى سكون مطبق مخيف ، وجلس الفتى وقد دفن وجهه بين يديه واستغرق فى تفكير عميق .. ليتها تعطى الرجل الجرة .. حتى يموت هو بجوارها .. ليتها تفعل ذلك فليس أحب إلى نفسه من أن يموت معها .. ولكنه

كان يحس أنها ستحاول إنقاذه .. وكان يكره ذلك .. لأن الحياة بدونها خير منها الموت .. على أية حال إن خير ما يفعله لو أعطته الجرة هو أن يحطمها أمامها ، ويبقى ليموت معها .

وأخيراً بدا قرص الشمس الذهبي وقد لامس حافة الأفق ، وأخذ يهبط رويداً رويداً ، حتى اختفى تماماً .. وقام الفتى بخطى متثاقلة واتجه إلى خيمة الرجل .. ووقف كلاهما ينتظر المصير الذى ستحكم به المرأة .

وطالت وقفتهما ، والمرأة ما زالت فى خبائها .. فتقدم الإثنان .. حتى وصلا إلى الخباء ، وارتفع صوتاهما يناديان المرأة ، ودفع كل منهما برأسه إلى الداخل .. يقلب بصره ذات اليمين وذات اليسار ، وبدرت من الفتى صيحة عجب ، فقد كان الخباء خالياً ! .

وفى مؤخرة الخباء بدا طرف منه مرفوعا وظهرت على الأرض آثار زحف المرأة إلى خارجه .. ولم يتمالك الفتى أن صاح فى دهش شديد :

— لقد فرّت ! لقد أخذت هى الجرة ! لقد وهبت نفسها الحياة ! لقد سخرت منا كلينا ! .

ولم يبد على الرجل أى دهش ، بل نظر إلى الفتى

فى كثير من الازدراء . وأجابه بهدوء ورزانة :

— عليك نفسك ! لقد كنت أعلم أنها ستفعل مافعلت . إن المرأة أنانية . . إنها تحب نفسها أكثر مما تحب أى رجل . أما حبها لأى رجل فيختلف بقدر ما يعطيها من المتعة ، متعة المال . . أو متعة الجسد . . أو متعة القلب . إن المرأة تحب نفسها أولا ، ثم تحب من الرجال أقدرهم على إرضاء نفسها .

وأطرق الفتى برأسه إلى الأرض . . ثم تساءل بصوت خفيض يحمل فى نبراته الأسى والألم :

— أكنت تعلم أنها ستفر بالجرة ثم تركتها تفر . . أتركتها تتسلل بحياتها فوق جثتينا ؟!!

— ليس فوق جثتينا . . بل تحت أقدامنا . . كما تتسلل حشرة ضئيلة حقيرة . . إننا لن نموت عطشا ! لأن الرجال لم يذهبوا كما ادعيت إلى غير عودة . . بل سيعودون فى الصباح ، وسنبدأ الصيد من الغد .

وصمت الرجل برهة ثم أردف :

— أتراك قد عرفت المرأة ؟ أتراها تستحق أن تفتديها بحياتك كما حاولت أن تفعل . . أتراها تستحق أن تكفر بنعمتى من أجلها ؟ أمَ عرفت أنها مخلوق أنانى لا يحب سوى نفسه ؟ . . .

فهرس

الغلاف بريشة الفنان
الأستاذ عبد العزيز صادق

مطبعة شركة فن الطباعة

الناشر مكتبة الخانجي

الثمن $\frac{\text{ص}}{١٥}$

شركة فن الطباعة


Princeton University Library
32101 072235961